عنترة بن شداد

٧

دار المعارف بمصر

عنترة بن شدّاد

٧

تأليف

حسن جوهر — محمد أحمد برانق

أمين أحمد العطار

ملتزم الطبع والنشر

دار المعارف بمصر

١

جاءت الأنباء تترى أن الأسود أخا النعمان أصبح قريباً بجيشه من الديار ، وأنه مصر على قتل رجال بنى عبس ، ونهب أموالهم ، وبيع نسائهم فى أسواق القبائل ، وترك منازلهم خاوية على عروشها ؛ فجمع قيس البارزين من الفرسان والأعيان ليرى رأيهم فى لقاء الأسود وجيشه ، فأجمعوا أمرهم على أن ينفروا لقتله وتمزيق جنده ، فقال قيس : ولكنى لا أزال أتوقع غدر حذيفة ، على الرغم من رهائنه ، ولهذا فإنى أرى أن نمهل النفير ، حتى أرسل إلى بنى غطفان ، ليبعثوا إلينا جنداً ، نكل إليهم حماية منازلنا ونسائنا وأموالنا ؛ فوافقوه على ذلك .

أرسل قيس إلى بنى غطفان يطلب إليهم أن يرسلوا من يستطيعون إرساله من فرسانهم لمعاونتهم وشد أزرهم ، فبعث إليهم سيد بنى غطفان بهيج بن حازم ألف فارس بقيادة الهطال ابن أخت عنترة ليحمى ديارهم وهم يقاتلون الأسود ، ووصاه أن يكون يقظاً ثابت الجنان شديد البأس ، حتى تسلم المنازل من عدوان المغيرين .

سار الأسود إلى بنى عبس فى عشرين ألفاً من جنده ، ولما وصل إلى وادى الأخدود نزل عنده ، حتى اجتمع له خمسة آلاف أخرى من

فرسان القبائل التى أمرها النعمان أن تكون طوع الأسود ، وأن تمده بما يشاء من مال ورجال ؛ وجاء لقيط بن زرارة فى جند كثير من بنى تميم ودارم ، وجاء غشم بن مالك فى عدد عظيم من بنى عامر ، فبلغ جيشهم ثلاثين ألفاً ، ولما وصل إلى جبال الدنبار ، رأى مقدمة الجيش تموج وتضطرب ، وترتد على أعقابها خائفة فزعة ؛ فسأل الأسود عن ذلك فقيل :

طلع علينا أسد ما رأينا مثله ، فى ضخامة جسمه ، وتوقد عينيه ، وصلابة يديه ورجليه ، إذا مشى أو عدا مادت الأرض تحت أقدامه ، فتداكت مقدمة الجيش بسيوفها ورماحها عليه ، فما أبه بها ، ولكنه جال فيهم جولان الموت والفناء ، فقتل ثلاثة فرسان أشداء ، ورد المقدمة على أعقابها ، وهو الآن يخطر خطرة المزهو بنصره ، لا يخشى كثرة ، ولا يهاب ضربة .

فابتأس الأسود وقال فى نفسه :

إذا كان الفرسان قد فروا من حيوان ، فما بالهم إن لقيهم شيطان بنى عبس عنترة ؟ !

وأخفى غمه فى نفسه ، وهم أن يذهب هو إليه ويقتله ، ويشد بذلك من عزم جنده ؛ ولكن غلاماً فى مطلع حياته وبكرة عمره ، تقدم إلى الأسود قائلا :

خل عنك ما هممت من أجله ، فسيكفيك سيفى هذا شره .

قال الغلام قولته ، وانفلت من بين يديه فى سرعة عاجلة ، حتى كان قدام الأسد ؛ فرأى الأسد فى ذلك الإقدام انتهاكاً لحرمة هيبته ، وهم أن يثب عليه وثبة تسلمه إلى مصرع أليم ؛ ولكن الفارس عاجله بسيفه فشقه نصفين ، ونظف سيفه بلبدته ، وانكفأ راجعاً إلى الأسود يبشره ، فسبقه النبأ فى سرعة البرق إليه ، فاستبشر بهذا الفارس واستقبله بالغبطة وعظيم التقدير ، ومنحه حلة من الحرير الكسروى ، فردها وأبى أن يأخذها ، فظن الأسود أنه احتقرها ، فقال :

أصبحت لك عندنا منزلة عظيمة ؛ وهذه وأمثالها قليلة بالنسبة لشجاعتك ، فاقترح ما تشاء من الهدايا ، فنفسى طيبة بما تأخذ وإن كثر .

فقال الغلام :

أتريد أن يقال عنى إنى أخذت لقاء شجاعتى ودفع الخطر عن صحبى مالا ، إن الجائزة التى أبتغيها وأسعى إليها أن أقتل عنترة ، حتى يخلد ذكرى ، ويدوم بدوام الأيام مجدى وفخرى .

فسأله الأسود :

من أنت ؟ !

قال الغلام : أنا جراح بن صائل من بنى وائل ، وما فعلت ذلك إلا

ليعلم الناس عنى وعن قبيلتى من مواقف الشجاعة ما لا يعلمون ، ومن العار الذى أعافه أن يقال عنى :

قتل جراح بن صائل كلباً من كلاب البيد وأخذ لقاء هذا مالا وجزاء .

فرح الأسود إذ عرف أن جراحاً يبغى بمجيئه اغتيال عنترة ، فقال :

لئن قتلت عنترة يا جراح ، ووفيت بوعدك فيه — فأنت سيد العرب من عدنان وقحطان ؛ وهذا سيفى فخذه ليكون لك أكبر عون على تحقيق وعدك ، فأخذه جراح مغتبطاً به .

وتقدم لقيط بن زرارة حينئذ إلى الأسود وقال :

لقد احتمل جراح قتل عنترة ، وأنا وإخوتى نحتمل عنكم قتل قيس وإخوته .

وقال غشم بن مالك : وعلىّ أنا قتل بنى زياد .

فابتهج الأسود وعظم أمل النصر عنده وقال :

ولكم عندى ما تشاءون من خير الجزاء .

واستأنف المسير حتى كان بأرض يقال لها الكلال ، كثرت عيونها وامتدت أشجارها ؛ فوجد خياماً ورجالا وخيلا قد ملأت نواحيها ؛ وكانوا من بنى عبس نزلوا بها للقاء الأسود وجيشه فيها ، ومضى على نزولهم يوم وليلة .

ولما نزل الأسود بجيشه بعث إلى قيس بما يريده ، من تسليم الحارث بن ظالم ، فإن أجابه إلى طلبته رجع دون أن يشهر سيفاً ، أو يهز رمحاً ، وإلا أشعلها نار حرب طاحنة تأكل الأخضر واليابس .

فرد قيس رسول الأسود خاسئاً حزيناً مكسور الخاطر ، وأراد عنترة أن يعلن احتقاره للأسود بقتل رسوله ؛ ولكن قيساً أقسم عليه أن يتركه يمضى لسبيله ، ورجع الرسول إلى الأسود فأخبره بما رأى وسمع ، وكان النهار قد أوشك أن ينقضى ، فأصر على الحرب وأرجأ بدءها إلى الصباح .

وما أصبح الصباح حتى التقى الجيشان ودارت بينهما معركة حامية ، جال فيها عنترة وصال ، وأحسن الكر والنزال .

وكانت نتيجة الحرب فى اليوم الأول قهر الأسود ، والفتك بفرسانه فتكاً ذريعاً جعله فى حيرة من أمره ، فجمع رجاله وجعل يقبح لهم الهزيمة ويحملهم تبعتها ؛ وقد تذكر حذيفة بن بدر ، وإغفاله معونته ، متألماً منه ، عاتباً على موقفه ؛ فأشاروا عليه أن يجعل الحرب فى اليوم الثانى مبارزة بين الفرسان ، وأن يطلب الأسود من جراح بن صائل ولقيط بن زرارة وغشم بن مالك ، ومن وعد من الفرسان بالمبارزة أن يفوا بوعودهم ، ويقتلوا عنترة ، وقيساً وإخوته ، والربيع وعشيرته ، والبارزين من فرسان بنى عبس ؛ ومتى قتل هؤلاء خارت عزيمة الأعداء وضعفت شوكتهم ؛ ثم باتوا على هذا الرأى إلى الصباح .

ليعلم الناس عنى وعن قبيلتى من مواقف الشجاعة ما لا يعلمون ، ومن العار الذى أعافه أن يقال عنى :

قتل جراح بن صائل كلباً من كلاب البيد وأخذ لقاء هذا مالا وجزاء .

فرح الأسود إذ عرف أن جراحاً يبغى بمجيئه اغتيال عنترة، فقال :

لئن قتلت عنترة يا جراح ، ووفيت بوعدك فيه — فأنت سيد العرب من عدنان وقحطان ؛ وهذا سيفى فخذه ليكون لك أكبر عون على تحقيق وعدك ، فأخذه جراح مغتبطاً به .

وتقدم لقيط بن زرارة حينئذ إلى الأسود وقال :

لقد احتمل جراح قتل عنترة ، وأنا وإخوتى نحتمل عنكم قتل قيس وإخوته .

وقال غشم بن مالك : وعلىّ أنا قتل بنى زياد .

فابتهج الأسود وعظم أمل النصر عنده وقال :

ولكم عندى ما تشاءون من خير الجزاء .

واستأنف المسير حتى كان بأرض يقال لها الكلال ، كثرت عيونها وامتدت أشجارها ؛ فوجد خياماً ورجالا وخيلا قد ملأت نواحيها ؛ وكانوا من بنى عبس نزلوا بها للقاء الأسود وجيشه فيها ، ومضى على نزولهم يوم وليلة .

ولما نزل الأسود بجيشه بعث إلى قيس بما يريده ، من تسليم الحارث بن ظالم ، فإن أجابه إلى طلبته رجع دون أن يشهر سيفاً ، أو يهز رمحاً ، وإلا أشعلها نار حرب طاحنة تأكل الأخضر واليابس .

فرد قيس رسول الأسود خاسئاً حزيناً مكسور الخاطر ، وأراد عنترة أن يعلن احتقاره للأسود بقتل رسوله ؛ ولكن قيساً أقسم عليه أن يتركه يمضى لسبيله ، ورجع الرسول إلى الأسود فأخبره بما رأى وسمع ، وكان النهار قد أوشك أن ينقضى ، فأصر على الحرب وأرجأ بدءها إلى الصباح .

وما أصبح الصباح حتى التقى الجيشان ودارت بينهما معركة حامية ، جال فيها عنترة وصال ، وأحسن الكر والنزال .

وكانت نتيجة الحرب فى اليوم الأول قهر الأسود ، والفتك بفرسانه فتكاً ذريعاً جعله فى حيرة من أمره ، فجمع رجاله وجعل يقبح لهم الهزيمة ويحملهم تبعتها ؛ وقد تذكر حذيفة بن بدر ، وإغفاله معونته ، متألماً منه ، عاتباً على موقفه ؛ فأشاروا عليه أن يجعل الحرب فى اليوم الثانى مبارزة بين الفرسان ، وأن يطلب الأسود من جراح بن صائل ولقيط بن زرارة وغشم بن مالك ، ومن وعد من الفرسان بالمبارزة أن يفوا بوعودهم ، ويقتلوا عنترة ، وقيساً وإخوته ، والربيع وعشيرته ، والبارزين من فرسان بنى عبس ؛ ومتى قتل هؤلاء خارت عزيمة الأعداء وضعفت شوكتهم ؛ ثم باتوا على هذا الرأى إلى الصباح .

ولما تنفس الصبح تقدم جراح بن صائل ونادى :

يا عنترة ! أقبل ، لأطفئ ظمأ سيفى من دمك .

فجاءه عنترة قائلا :

لبيك أيها الغلام الغر ، قد جاءك عنترة ليجعل لحمك طعاماً للطير ، أو يحبسك فى قيود الأسر .

ثم حمل عليه حملة خرج جراح منها أسيراً ، فسلمه إلى أخيه شيبوب ، وتركه وهجم على ناحية من الجيش ، فجعل يجز الرقاب ، فى حين كان الفرسان الآخرون يبارزون أقرانهم ، واندفع الجمعان يشد كل منهما أزر فرسانه المبارزين ، فانقلب الحال إلى معركة حامية كانت على الأسود وجيشه شرًّا وبيلا ، وزادها عليه شدة وسوءاً أن جاء قسورة بن ظالم أخو الحارث فى جمع من بنى مرة ملبياً أمر أخيه ، فانضم إلى صفوف قيس بن زهير ، وأبلى معهم فى القتال بلاء حسناً .

وانتهى ذلك اليوم ، وكان أشد عسراً على الأسود من أمسه .

كاد الغيظ يمزق الأسود ، لما أصاب جيشه من نقص فى الرجال ، وعجز عن القتال ، وأيقن أنه لن يفلت ولن ينتصر ما دام الأمر على هذه الحال ، فجمع أهل الرأى والمشورة من جنده ، وجعلوا ينظرون ماذا يفعلون ، عسى أن يقعوا على رأى ينجيهم ويجعل النصر لهم .

وبينما هم يقلبون وجوه الرأى إذ دخل عليهم عبد أسود أشعث أغبر

تبدو عليه علامة السفر ، ووعثاء الطريق ، ووقف بين يدى الأسود وقبل يديه ، فسأله :

من أنت ؟ وما جاء بك ؟

فقال :

يا مولاى ؟ أنا من عبيد فزارة ، بعثنى إليك سيدى حذيفة يبشرك بنصره وأنهى إليك ما فعله ، وما هو عازم على القيام به .

فشخصت إليه الأبصار ، وتعلقت به الآمال ، وحبست على ما يفوه به العقول والأفهام ، وقال له الأسود :

قل وأوجز .

فقال :

ترقب سيدى مغادرة بنى عبس ديارهم ، ثم أغار عليها ، فأخذ الأموال ، وأسر من فيها من رجال ونساء ، وقد ساقهم إليك ، وفى الصباح يكون بهم بين يديك ، وهو قادم فى عشرة آلاف فارس ليهلك بهم بنى عبس ؛ ولكنه يخشى أن يصل إليك بعد أن يكونوا قد هربوا وفروا من بين يديك ، فبعثنى ليشير عليك أن تجعل جيشك فرقاً ، وتوزعها حول منازل أعدائك ، ولتكن أنت وفرقتك فى ميمنة خيامهم ، حتى لا ينجو منهم أحد قبل وصوله ، وبعد ذلك نغير عليهم من كل جانب ، ويأتيهم الموت من كل مكان ، وتنتهى بذلك رواية عبس .

فلما سمع الجمع هذا القول جرى ريقهم فى أفواههم ، وتألق البشر فى وجوههم ، وقال الأسود :

لقد كشف عنا حذيفة بن بدر ، ما مسنا من بلاء وضر ، وفى الحق لولا اعتمادى على مؤازرته ما خطوت من العراق بجيشى خطوة واحدة ، وما علينا الآن إلا امتثال أمر حذيفة .

وأصدر أمره فى الحال إلى أمراء جيشه أن يجعلوه فرقاً كما أراد حذيفة ، ولما انتهوا من التوزيع جاءوا إليه وأخبروه أن الجيش الآن على الحال التى أشار بها حذيفة ، فالتفت الأسود إلى العبد قائلا :

اذهب إلى مولاك وأخبره بما علمت ، وبلغه أن يجد فى سيره حتى يكون عندنا فى صباح غده ؛ فخرج العبد إلى البيداء ، وانفلت يخوض غمار الظلماء ، حتى غاب عن القوم ، ثم مال إلى منازل بنى عبس ، وهناك اجتمع بعنترة وقيس ، وذوى الرأى من حاشيتهم ، فأخبرهم أنه نفذ ما كان قد أشار به عليهم من تفريق جيش الأعداء ، وأمرهم أن يهبوا فى الحال للهجوم عليهم فى جنح الظلام .

وقد اختار هذا العبد أن يكون من خلفهم ، فى ثلة من فرسانهم ، حتى إذا رأوا كتيبة من الأعداء مقبلة لتعين أخرى فى ضيق وبلاء نادوا فى جنح الظلام :

النجاة ! النجاة ! والفرار ! الفرار ! يا رجال النعمان .

كانت مكيدة داهية وكان العبد الذى دبر تلك المكيدة شيبوباً أخا عنترة .

وانفلت بنو عبس فى ظلمة الليل وأغاروا على الأعداء فى منازلهم المتفرقة ، وانقضوا عليهم قتلا وتشريداً وأسرا ، حتى لم يبق منهم فى ساحات القتال إلا من قتل أو أسر ، وبعثر الهاربون فى القفار يهيمون فى الظلام إلى حيث لا يدرون ، وأسر الأسود ولقيط بن زرارة وغشم بن مالك وكثير من سراة الجيش وغيرهم ، وسار بنو عبس بهم إلى ديارهم مغتبطين ، ولما كانوا منها على مسيرة يوم إلا أقله ألفوا من خلفوهم من العبيد لائذين بالصحراء باكين ، فسألهم قيس عما حل بهم ودهاهم ، فقالوا : بعد خمسة أيام من ارتحالك أغار علينا حذيفة بن بدر فى خمسة آلاف فارس ، فنهب الأموال ، وأسر النساء ، وذبح أربعمائة طفل واحداً فى أثر آخر ، ومن بينهم يا مولانا ابنك ، واسترد الرهائن ، وهزم الحامية من بنى غطفان شر هزيمة ؛ فابتأس قيس وجيشه بما سمعوا ، وقال :

لنذهب إلى المنازل لنترك الأسرى ، ونستعد لغزو حذيفة والانتقام منه ، وتخليص أسرانا من قبضته ، ولكن عنترة أبى وأصر على أن يتوجه لساعته إلى بنى فزارة ، ونادى فى الجيش يخفف عنهم حزنهم على فقد أبنائهم ، ويوقد نار الانتقام فى نفوسهم ، ويعدهم نصراً مبيناً ، وغنماً كبيراً ، فقال :

يا بنى عمومتى ! ما فات مات ولا راد له ، والآجال مقدورة لا محو فيها ولا تبديل ، يستوى فى ذلك الصغير والكبير ، فإذا ما جاء أجل إنسان فذلك ما كتب وقدر ، والحزن على من مات من دأب الإماء والسيدات ، أما الرجل فله ثباته ونخوته ، والاعتصام بجلده وصبره ، وقد عولت على أن نذهب إلى بنى فزارة لأخلص الأسيرات من نسائنا ، وأجعلهن يذبحن بأيديهن ، أبطالهم ورجالهم ، ليكون ذلك لهن شفاء وغبطة ، وللنساء فى بنى فزارة آية وعبرة .

أعطى قيس الحارث بن ظالم الأسرى من جيش الأسود ، وبعثه مع مائة فارس إلى ديارهم منتظرين عودتهم من غزو بنى فزارة وأعفاه من القتال معهم ، لما بينه وبينهم من النسب والقرابة ، فقال الحارث :

كنت أود أن أكون معك ، ولكنى لا أشهر سيفاً فى سادة بنى بدر ، وإن كنت لم أجد منهم مؤاساة ولا معونة .

فقال قيس :

عرفنا ذلك فقدرناه ، ولهذا جعلناك على منازلنا ، وعلى الأسرى من أعدائك حتى نعود إليك .

وكان حذيفة قد أمر أن تحفظ الغنائم والأسرى حتى يعرف مصير بنى عبس فى محاربتهم الأسود أخا النعمان ، وما لبثوا غير قليل حتى طلع عليهم قيس وعنترة فى خمسة آلاف شداد من أبطال عبس ، فنزلوا فيهم كالوباء

وجالوا بينهم جولان الموت فى الأحياء ، فقتلوا كثيراً ، وأسروا كثيراً ، حتى فرق بينهم الليل ، وأوى كل من الفريقين إلى مضاربه . وكان بنو عبس قد خلصوا أسراهم من بنى فزارة ، وكان عدد الأسرى من بنى فزارة خمسمائة ، فقتل منهم قيس مائة فى ولده ، وسلم الباقين إلى النساء فذبحت كل واحدة فارساً فى ابنها . وكان جزع حذيفة شديداً ، وزاد جزعه حتى كاد يذهله ويفقده رشده ، حينما علم أن جيش النعمان قد تمزق ، وأن الأسود ولقيط بن زرارة وغشم بن مالك قد أسروا .

ولما جاء الصباح وشاع فى بنى فزارة قتل من أسر منهم ، تفانوا فى القتال ، فقابلهم بنو عبس بضرب خلع قلوبهم ، وأفنى أبطالهم ، ولم يصدهم إلا ظلام الليل ، فسكنوا مساكنهم حتى الصباح .

وفى أثناء الليل ، أشار قيس على عنترة أن يبعث الأموال والنساء إلى الديار ، وينتظر هو وجنوده حتى يقضى على بنى فزارة ، وينسخ وجودهم ، فلا تقوم لهم قائمة ، فقال :

ذلك رأى رشيد .

وسار الحارث بن زهير ، فى مائة فارس ، بالأموال ونساء بنى عبس إلى منازلهم ، وكان يحميها إذ ذاك الحارث بن ظالم .

أما حذيفة فبات يتخبط من مس الهزيمة ، واعتقاده أن بنى عبس لا محالة مهلكوه ، ومهلكو قومه ، فقال له سنان بن حارثة وقد رآه مضطرباً :

سأعرض عليك رأياً وربما كان فيه نجاتنا .

فقال حذيفة :

وماذا يجدى الرأى وليس بيننا وبين الموت إلا بقية من هذا الليل ؟ !

فقال سنان :

علينا أن نفعل كل ما فى استطاعتنا ، فإن فزنا فذاك ما نوده ، وإلا فقد أدينا ما علينا لأنفسنا من دفع الخطر عنا بكل وسيلة نستطيعها .

فقال حذيفة :

هات ما عندك يا سنان .

فقال سنان :

أرحل الآن فى ظلام هذا الليل أنا وزوجى إلى ديار بنى عبس ، وهناك ألتقى بالحارث بن ظالم ، وأتضرع إليه أنا وزوجى أن يكون عوناً لنا على بنى عبس ، أو يرتق ما بيننا وبينهم .

فقال حذيفة :

هذا رأى حسن ، ولكن من يضمن لك أن الحارث بن ظالم يقبل منك استعداءه على بنى عبس ، وهو لا يزال فى حمايتهم ، وما كان قتالهم الأسود أخا النعمان إلا من أجله ، أما أنا فقد عزمت على أن أخوض غمار الحرب غداً ، حتى أنتصر أو أموت ، فالموت فى الحرب خير لى من هذه الحال ، وبات على هذا العزم إلى الصباح .

ولما أشرقت الشمس ركب جواده وطلب أن يبارز قيساً ، وكان قد وصى إخوته أن يستعدوا للهجوم عليه معه ، وقتله إذا انفرد به فى مكان بعيد .

نادى حذيفة قيساً للمبارزة ، وعز على قيس أن يطلبه ولا يجيبه ، فبرز إليه ؛ وكان حذيفة كلما رأى قيساً ضايقه ، فر من أمامه ، وقيس يتبعه حتى بعدوا عن القوم ، فانقض عليه إخوته لتنفيذ ما أمروا به ، ولكن عنترة كان لهم بالمرصاد ، فطار إلى نجدته ، ووصل إليه قبل أن تنفذ فيه مكيدة حذيفة ، فشتت شمل إخوته ، وطعنه بكعب رمحه طعنة قاسية أسقطته على الأرض كالمغشى عليه ، فأسرع شيبوب وأوثقه ، ورجع جميعهم ومعهم حذيفة إلى صفوف الجيش ؛ ودأب عنترة على الضرب والطعن ، حتى فر بنو فزارة إلى خيامهم ومنازلهم خائبين .

٢

وبينما الربيع بن زياد ينادى أن اقتفوا أثر هؤلاء الفزاريين الخونة فى منازلهم حتى تقطعوا دابرهم ، إذ سمع العبسيون صياحاً يدوى فى الجو ، فشغلهم عن اتباع الفزاريين ، وأدبروا عنهم إليه .

وكان قد أرسل هذا الصياح ثلاثة من هؤلاء الفرسان الذين كانوا

مع الحارث بن ظالم لحماية الأسرى من جيش النعمان ، فسألهم قيس ابن زهير عما وراءهم فقالوا :

لما انتجعنا ديارنا تولى الحارث بن ظالم أمر الأسرى ، ولم يشرك فى أمرهم معه أحداً ، وجعل يصب عليهم جام غضبه وعذابه ، وفى الليلة الثالثة من انتجاعنا غلا فى تعذيبه إياهم حتى ظننا أنه مهلكهم ، ولما أشرق علينا النهار لم نجد فى الديار الحارث ولا الأسرى ، فظننا أن الحارث عاد إلى خبثه وغدره ، وقوى ظننا هذا أننا لم نعثر بهم فى طريقنا ، ولم نجد لهم عندك أثراً ولا خبراً ؛ وقد جاء بنا إليكم مسرعين خشيتنا من أن يدهموكم بغتة ، لأن الحارث يصحبه فى اختفائه بالأسرى أربعون فارساً ممن لا يشق لهم فى البطولة غبار ؛ فقال قيس :

وقد كان هذا قبل أن يصلكم العيال والمال ؟

فقالوا :

ما رأينا فى منازلنا أو فى طريقنا مالاً ولا عيالاً .

فقال عنترة :

الأمر يا مولاى واضح وضوح الشمس ، فقد جعل الأسود يمدح الحارث ويرقيه ويخدعه ويغويه ، حتى ضمن له الأمان من النعمان لتعود إليه حياته الحرة الأولى . فاستسلم لخديعته وفر بهم إلينا ليقاتلونا وينالوا منا نيلا ، ولما لقيهم فى الطريق أموالنا وعيالنا اغتنم الحارث هذه الفرصة ،

وساقهم أمامه إلى النعمان لتقربه إليه زلفى ، وتجعله يغفر له خطيئته ويعفو عنه .

فقال قيس : لئن صح زعمك فقد أصبحنا بين أمرين : أحلاهما وأيسرهما خطر ، فإن نحن بقينا فى بنى فزارة خربت ديارنا ، وفقدنا أموالنا وعيالنا ، وإن نحن تركنا الفزاريين وعدنا إلى منازلنا جاءهم الحارث بن ظالم فبعثهم من موتهم هذا ، وحاربونا كلهم وقد يكون فى ذلك من الخطر ما لا نستطيع دفعه .

فقال عنترة :

وأرى أن تبقى بجيشك حتى تقضى به على بنى فزارة ، أما أنا فسأذهب فى عشرة أبطال إلى حيث أعيد الأسود ومن معه إلى قيود الأسر والاعتقال ، وأخلص أموالنا وعيالنا من أيدى كل ظالم آثم .

اختار عنترة عشرة أبطال ، من بينهم عروة بن الورد ، ونازح بن أسيد ، والهطال بن أخته ، وسار بهم يقدمهم شيبوب أخوه ويسلك بهم ما يشاء من المسالك والطرق حسب خبرته ومعرفته .

كاد الفزاريون بعد أسر حذيفة أن ينزحوا عن الديار فراراً من الموت أو الأسر ، ولكن سنان بن حارثة أشار عليهم ألا يعجلوا بالهرب ، وأن يبقوا فى منازلهم ، فإذا ما اشتدت وطأة بنى عبس ، وعلموا ألاّ ملجأ لهم منهم ، فروا بالنساء والأولاد ، وتركوا الخيام والمال ، وإن شغل العبسيين

شاغل ألهاهم عن قتالهم مدة ما كان ذلك من حسن حظكم ، فقد كتبت أنا وحذيفة إلى قبائل العرب ، وأنفذنا إليهم كثيراً من المال ليمدونا بالرجال ويكشفوا عنا هذا الوبال ، وفى ظنى أن وقت حضورهم كاد يحين .

بقى قيس مع الجند عند بنى فزارة ، ولكنه أعرض عن قتالهم يوماً ، لأن نبأ الحارث بن ظالم أثر فى نفسه ، فشغله عن الاستمرار فى الحرب ، وكان هذا اليوم الذى أعرض فيه قيس عن القتال من حسن حظ بنى فزارة ؛ فقد جاءهم العون من قبائل العرب عند غروب شمسه ، وشجعتهم تلك النجدة على استئناف القتال فى الصباح ، ولم يغب عن قيس تبدل الحال فى بنى فزارة ، وأن سطعت القوة عليهم ، وزاطوا زياط الطير ، فرحين بما جاءهم من نجدات ، فأذاع هذا بين جنده ، ووصاهم ألا يهنوا ولا يضعفوا ، وأن يستعدوا للقتال غداً .

وما جاء الصباح حتى رأى بنو عبس فارساً ملثما يجرى بجواده ، فى ساحة القتال هنا وهناك ، قائلا :

يا بنى عبس ؛ لقد عرفتم بالحسب الرفيع ، والنسب العريق ، وشمل عدلكم وفضلكم القريب والبعيد ، وقد كان منا البغى والعدوان ، فحل علينا البوار ، وكدنا أن نفر هاربين ، ولكن خشينا العار والفضيحة ، فرأينا أن تبرز فرسانكم إلينا لتقرر المبارزة مصيرنا .

فقال قيس لفرسانه : دونكم هذا الفارس وأحضروه بين يدى

ولا تقتلوه لنعرف من هو ! ! فإنى أرى الشجاعة تشع من أعطافه ، وأخشى ألا تحفلوا به فيظهر عليكم .

طمع فرسان بنى عبس فى أن يغلبوه ، فتسابقوا إلى مبارزته ، ولكنهم لم ينالوا منه نيلا ، وقتل منهم من ينيف عددهم على العشرة ، ففزع العبسيون إلى قيس ليحملوه على أن يأمرهم جميعهم بخوض غمار الحرب ، حتى ينهالوا على هذا الفارس الذى لم يعرفوه فيقتلوه ويتقوا شره ، فإن الحالة إذا دامت على تلك المبارزة فقد ينقص عددنا وتضعف قوتنا ، ونذل بعد عزتنا ؛ فنزل على إرادتهم وقامت الحرب على سوقها ، وهذا الفارس كأنه شبح الموت فهو يقطع حبال الآجال ، ويلقى الرعب فى القلوب ، ويملأ النفوس هيبة ومخافة .

والتقى هذا الفارس بقيس بين زهير وكشف اللثام عن وجهه ، فقال :

أبشر يا قيس بالبؤس والشدة ، والضنك والذلة ، أنا الحارث بن ظالم ، فارس بنى مرة ، جئت لأسقيكم كأس الموت دفعة واحدة .

فأصاب قيساً ما يشبه الذهول حزناً على أهله وقومه الذين خلفهم فى الديار ، وألما من ذلك الخائن الذى بدل نعمة قيس وعنترة عليه كفراً وجحوداً ، وفى تلك الآونة هجم عليه الحارث فقبض عليه وسلمه إلى بنى فزارة ، الذين تواصوا أن يحافظوا عليه حتى يجعلوه فداء لحذيفة ، ثم عاد إلى القتال ، حتى أقبل الليل ، فسكت القتل عن الفريقين .

كان الحارث قد تولى أمر الأسود أخى النعمان ومن معه من الأسرى فى غيبة قيس وعنترة بديار بنى فزارة ، فجعل الأسود يروضه ويخدعه ويمنيه، وكان مما قاله له :

أنت يا حارث الآن كالسجين الذى أمره فى يد حارسه، تشرب وتنام وتأكل ، ولا تستطع الفرار من قفصك الذى حبست نفسك فيه ، لخوفك من النعمان أن تقع فى يده أو فى يد من يوصلك إليه ، ولكنى أعدك أن يعفو النعمان عنك وتعيش مطلق الحرية كالطير يطير ويحط حيث يطيب له الحط والطيران إذا ما أنقذتنا من ذلك الأمر الذى ربما كان مصيره الفناء ، على أنك لا ترضى أن تكون فى حماية عبد ذميم ، وأنت بين العرب الحر الكريم .

فأغواه وعد الأسود ، ولم يجد فى نفسه وقاية من الوقوع فى شرك هذه الخديعة لأنه مجبول على الخيانة ولو كانت لنفسه ، وقال :

إنى أستجيب لقولك إذا صحبتنى إلى معونة بنى فزارة ليتهيأ لى هناء الالتقاء بعنترة حيث أستريح منه بقتله .

فقال الأسود :

سر بنا إلى حيث تشاء فإنا مصاحبوك ومؤازروك حتى تأخذ الأمان من الملك النعمان .

وهم الحارث بن ظالم بالفرار هو ومن جاء بهم من الأسرى، فاعترضه

الفرسان المائة الذين رجعوا بهم معه ، فأعمل هو والأسرى فيهم سيوفهم ورماحهم ، وقتل منهم كثيرين ومنهم من فر إلى قيس فأخبره بما فعل الحارث بن ظالم بهم .

وبينما الحارث سائر هو والأسود وبقية الأسرى، أحس كأن قافلة فى طريقها وفيها نساؤها وأنعامها وأموالها، فأرسل إليها رسولا يأتيه بخبرها ، ولما عرف أنهم بنو عبس ومعهم نساؤهم وأولادهم وأموالهم اللائى استخلصهن عنترة وقيس وجيشه من بنى فزارة بعد أن هزموهم شر هزيمة اضطرب الأسود وقال :

لقد بطل تدبيرنا ، وفسد عزمنا ، وخير لنا الآن أن نذهب إلى العراق مسرعين ، قبل أن يدركنا عنترة فيهلكنا بسيفه ، وإذا سقناهم معنا غنيمة إلى النعمان كان فرحه بك عظيما ، وسهل عنده أن يغفر لك خطيئتك ، وأسعى أنا لديه أن يزوجك عبلة نكاية فى عنترة .

فسر الحارث لهذا الرأى وقال :

ولأجل أن يتم هذا الرأى فى سلامة لنا يجب علينا أن نحيط بهم من كل جانب ، حتى لا يفلت أحد منهم فينقل أخبارنا إلى عنترة .

فقال غشم بن مالك :

وإنا على ذلك لقادرون .

ولما أصبح العبسيون فى قبضتهم قال الأسود للحارث :

لقد عرض لى رأى أفضى به إليك : ذلك أن نذهب بهذه الغنيمة والأسرى إلى النعمان وأن تذهب أنت إلى بنى فزارة ، فتكشف عنهم ضرهم وهزيمتهم وتذيق قيساً وصحبه بلاءك ، ثم تنقلب إلينا عند النعمان ، وستجدنى قد أصلحت ذات البين بينك وبينه .

فظن الحارث بالأسود ظن السوء ، وعزم على الغدر به ، وأن يقتله ومن معه وهم نائمون ، فقال للأسود :

ذلك رأى رشيد ، فلنسترح هذه الليلة ، ثم يذهب فى الصباح كل منا إلى سبيله .

ولكن الأسود ومن معه توقعوا خيانته ، فتواصوا بالحذر منه ، ووصوا الحراس أن يكونوا على يقظة مبصرة من الحارث وما يفعله . ولما رأى الحارث منهم هذا الحذر لم يأمن بواطن نفوسهم ، وخشى أن يذهب إلى النعمان معهم ، فيلقى حتفه على أيديهم وتدبيرهم هذا ، وعزم على أن يتركهم فى الصباح إلى بنى فزارة وكذلك فعل .

٣

جىء بقيس بن زهير وهو فى أسره إلى سنان بن حارثة والحارث ابن ظالم وعرضا عليه أن يخليا سبيله على أن يرد إليهما حذيفة ، ورضيا

أن يأخذا عليه موثقه أن ينفذ ذلك عقب عودته إلى أهله ؛ فالتفت قيس إلى الحارث وقال :

ما كنا ننتظر منك هذا الجزاء بعد أن جعلناك بالحماية كأحدنا ، واتخذنا النعمان بأن أجرناك عدوًّا لنا .

فقال الحارث مدفوعاً بفطرته الناشزة :

وكيف تنتظر من الحارث وفاء ؟! ومتى صدقتُ ما عاهدتُ الناس عليه ؟ ! ! وهل تطمئن لى نفسى إلا إذا أسلت بخيانتى الدموع وأحرقت الكبود ، وجعلت فى كل قلب من الأحزان والحسرة وهجا كأنه الجحيم ؟ ! إن الخبث إذا تشبث بنفس أى إنسان مسخه شيطاناً لا يجرى على يديه إلا كل شر ، ولا ينطق لسانه إلا بكل إغواء أثيم ، ودارت أعماله فى فلكه ، ولا يحفل بعد ذلك أصابت مواطن الحق أو أخطأتها ، وقد استبدلت بموقفى هذا منك الذى هو خير بالذى هو أدنى ، إذ أصبحت فى مأمن من عدوان النعمان وغضبه ، وكسبت صداقته ، وأسررت فى نفسى قتل عنترة لأريح الناس منه .

فقال قيس :

عنترة الذى أقسم لسنان هذا أن كل شعرة فيك برأس إنسان ؟ !

فقال الحارث : نعم ، والذى إن بقيت وفيا لكم قتل نفسه دفاعاً عنى ، والذى أطلب رأسه الآن .

فقال قيس :

لعل الله أراد أن يكفينا شرك ، فجعلك تحفر قبرك بيدك ، وتعرض نفسك للقاء من لا يرحمك ، ولا تفلت من يده ، وسترينا الأيام مصيرك من عنترة الذى لن يغلب .

فقال الحارث :

الأمر بينى وبينكم غدا ، وذلك أن تقسم لنا أن تبعث إلينا حذيفة ، إذا ما أخلينا سبيلك حتى يفصل بيننا وبينكم .

فأقسم لهم قيس بما أرادوا ، وكانوا يثقون به ، ففكوا وثاقه ، وسرحوه إلى جيشه ، على أن يلتقوا فى الميدان صباح الغد .

وحقق قيس عقيدتهم فيه ، فأحضر حذيفة وأكرمه وأطلق سراحه إلى جيشه ، ثم وصى جيشه أن يكونوا على حذر من رجال حذيفة ، وألا يمكنوهم من أنفسهم حتى لا تدور الدائرة عليهم ، فإما غلبوهم وإما طاولوهم حتى يحضر عنترة فيردهم ، وينزل البوار بديارهم .

ودارت رحى الحرب بين الطائفتين ، فغلب العبسيون ، وأسر الربيع بن زياد ، وكادت تنتهى بتشريدهم وتقويض بنيانهم ، لولا أن جاءهم مدد من حيث لايدرون ولا ينتظرون ، ذلك أن زائدة بن نصيب صديق الملك قيس وقريبه بلغه ما حل به من ضيق ، فحضر إليه بخمسمائة فارس ، وخاض بهم المعركة ، فثبت أقدام العبسيين ، ورد

عليهم أملهم فى النصر على الفزاريين ، ولكن الليل أقبل قبل أن يفصل السيف بينهما ، فارتقب كل منهما مصيره فى غد يومهم هذا .

وكان الحارث بن ظالم قد أرسل إلى أخيه قسورة أن يحضر إليه فى رجاله ليعاونه على بنى عبس ، ولكن هذا أنكر على الحارث غدره وخيانته ، فجاء برجاله ، ولكن إلى بنى عبس وعلى أخيه .

حضر قسورة هذا والتقى بقيس ، وأخبره أنه جاء ليحارب أخاه الذى أعياه خبثاً ولؤماً ، فوجده حزيناً على زائدة بن نصيب إذ أصيب بجرح أقعده ، فقال له :

سأبارز أخى ، وأكفيك شره .

ثم نزل إلى الميدان لمبارزته ، ولما عرفه الحارث قال :

يا بن أمى ، بعثت فى طلبك لتكون يدى التى أبطش بها ، فإذا أنت تطلبنى لتقتلنى ؟ !

قال قسورة :

لأن الموت خير من الحياة من غير شرف ولا كرامة ، وقد أضعت بخبثك وغدرك ما لك من شرف وكرامة ، وجعلت قومك وأهلك من الخزى والفضيحة فى أسفل سافلين ، فبرزت إليك لتختار أحد أمرين : إما أن تتوب إلى الله توبة نصوحا ، وترعى الذمام ، وتعتصم بالوفاء ، وتصدق الوعد ؛ وحينئذ أبقى عليك . وإما أن تصر على خبثك ، وتمادى فى غيك ؛

وحينئذ تكون طريد سيفى هذا ، حتى أقطع به عنقك ، وأريح الناس من شرك .

فقال الحارث : لقد طمعت فى غير مطمع ؛ فلست أنا للأولى ، ولست أنت للثانية ؛ فإما ارعويت أنت ، وإما هلكت وفنيت .

فقال قسورة :

لقد برزت إليك بعد أن ودعت الحياة حتى لا يطرق أذنى قول الناس : هذا أخو الحارث بن ظالم .

وما أقبل الليل حتّى كان الحارث قد ضرب رأس أخيه بسيفه فشقه نصفين وبذلك انتهت حياة كريمة بموت قسورة .

انتعش الفزاريون وضيقوا الخناق على العبسيين حتى أوشك الأمل أن يتقلص ظله من نفوسهم ، ولكن القدر لا يزال يحمى وجودهم ، فجاءهم بعنترة وتبدلت بحضوره الحال .

٤

كان عنترة قد رحل فى عشرة فرسان ليلحق الأسود ومن معه من الأسرى الذين بعثهم قيس إلى دياره ، وليلتقى بالحارث بن ظالم الذى نقض عهده ، وانقلب على العبسيين ، وأوقع فى قلوبهم رعباً وحسرة ،

ولما أدركهم هجم عليهم هجمته الحاسمة فى الوقت الذى تسرب فيه شيبوب إلى أسرى قومه ففكهم من قيودهم وساعدوا عنترة فى الفتك بالأعداء فقتلوا منهم وأعادوهم للأسر كما كانوا ، وعاد عنترة بهم إلى دياره ، وقد تضرع الأسود إليه أن يمن عليه هذه المرة بفك رقبته ، على أن يكون صديقاً له لا يناصبه العداء ، فقال عنترة :

إن ماضيك لا يشجع على الاطمئنان إليك ، كما لا أفصل فى أمرك حتى يرى الملك قيس فيه رأيه .

ثم سأله عن الحارث بن ظالم فقال :

لقد سلمنا أسرى بنى عبس ، لنذهب بهم إلى العراق ، ثم ذهب هو إلى بنى فزارة ليساعدهم وينقذهم من تلك الهزيمة التى حلت بهم من جيش قيس .

فقال عنترة : حينئذ تبقون هنا فى حراسة الحارث بن زهير ومن معه من الفرسان والعبيد ، أما أنا فإنى ذاهب من فورى مع فرسانى العشرة إلى الملك قيس حيث ألتقى بالحارث هناك ، وأذيقه العذاب ضعفين جزاء بما اقترف من الخيانة .

وهناك أخبر قيسا بما فعل بالأسود وصحبه ، وبمن كانوا معه من العبسيات الأسيرات وطمأنه عليهن ؛ ثم سأله عن الحارث بن ظالم : فحكى له قيس ما فعله بهم وبين له ما هم فيه من ضنك وضيق ، وطمأنه

عنترة ووعده أن يلتهم الحارث غداً بسيفه ، ويجعل بنى فزارة شتاتاً بين قتيل وجريح وأسير .

وانتشر فى بنى عبس نبأ قدوم عنترة فباتوا فرحين ، وعزموا على أن يؤججوا فى الصباح نار الحرب بقلوب من حديد ، وعزائم صلبة لا تلين ، وأيقنوا أنهم لا محالة غالبون .

* * *

برز عنترة والحارث فى ساحة القتال فقال عنترة :

ويل لك يابن الفاجرة ! ! لقد كفرت بما أنعمنا عليك من حمايتك ، فلا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون ، إنما يؤخرهم ليوم لا ينفع فيه مال ولا بنون ، وهذا يومك الذى تلقى فيه حتفك ، وتشرب كأس غدرك .

ففزع الحارث وأيقن أنه لا منجاة له من سيف عنترة ، فلاذ بمكره ، ومحاله وقال :

أهلا بأبى الفوارس ، ذى اليد البيضاء ، والإحسان والنعماء ، على من أحسن ومن أساء ، ما نطقت إلا حقاً ، وإنى لفى خزى مما اجترحته يدى بقتالكم ، والتنكر لكم ، وجحودى معروفكم ؛ ما كنت أتوقع هذا المصير معكم ، فقد كفل لى الأسود أن يعفو أخوه النعمان عنى إذا مننت عليه بفك رقبته ، ورضيت بذلك لأذهب إليه وأصلح ذات البين

بينكم وبينه ، وطوعت لى نفسى ان أنزل على رغبتهم فى أسر نسائكم ورجالكم ، ونهب أموالكم ، لتكون آية صدق لى عند الأسود ، وحتى يثق بى ويطمئن إلى جانبى ،ولكنى ما كدت أسير بهم حتى قرأت فى عيونهم أنهم يأتمرون بى ليقتلونى ، فأسررت فى نفسى أن أقتلهم وهم نائمون ، ولكنهم لم يمكنونى من ذلك لأنهم أخذوا حذرهم منى ، فخجلت أن أعود إلى دياركم بعد أن فعلت برجالكم ما فعلت، وفررت إلى بنى فزارة لأكون معهم عليكم ، حتى أعرف مصيرى عند النعمان بعد وصول أخيه إليه ، والآن أسألك عن الأسود وأخباره .

فقال عنترة :

أدركته ومن معه وكبلتهم فى قيود من حديد ، وقتلت من فرسانهم وحملت من أسرت إلى ديار بنى عبس ؛ وفككت أسر من أسروا من نسائنا وأولادنا ، واستوليت على ما حملوا من أنعامنا وأموالنا ، ورددت ذلك كله إلى ديارنا ؛ فلما عرفت خبرك ، ووقفت على خيانتك وغدرك ر جئت لأقضى على بنى فزارة ، وأذيقك أنت كأس المنون .

فقال الحارث :

ولكنك رب الصنيعة والإحسان ، والعفو عن الآثم إذا تاب وأناب .

فقال عنترة :

ولكنك لست أهلا للصنيعة والعفو ، ولا يزيدك الإكرام إلا تمرداً وفجورا .

فقال الحارث :

تلك توبة نصوح ، وهذا سيفى أضعه فى يدك شاهداً على صدق ما أقول .

وأغمد سيفه وناوله عنترة ، ولكن عنترة تأثر بقوله ، وأبى أن يأخذ منه سيفه ، ومنحه الأمن والسلامة منه ، ووعده أن يأخذ له الأمان من الملك قيس ، وسار الحارث ، وعنترة من خلفه إلى الملك قيس ، ليعيد توبته بين يديه ، وليحصل على العفو عنه ، ولكن الحارث لا يزال فاسد الطوية ، لئيم الطبع ، مترقب الفرص للغدر بعنترة ؛ فلم يخط أمامه بضع خطوات حتى سمع حذيفة بن بدر يناديه قائلا :

لقد جبنت يا حارث وساقك العبد بين يديه سوق الأنعام ، ودفنت أنفك فى الرغام ، وما كنت بذلك إلا من العجزة اللئام .

فالتفت الحارث إلى عنترة وقال :

لقد سمعت ما قاله حذيفة ، ولا أريد أن أذهب إلى قيس إلا وفى يدى حذيفة أسيراً .

وغمز جواده ، واستل سيفه ، حتى يلبى ثورته على حذيفة ، ولكنه ضرب عنترة وهو يعدو على رأسه فجرحه ، وفر هارباً إلى حذيفة وهو يظن أن الضربة أصابت منه مقتلا .

أما عنترة فقد أرجأ أمر الحارث وذهب إلى قيس ليعصب جرحه

ثم يطلبه ليثأر لنفسه ولقومه ، وهناك حدثهم بما كان من الحارث ، وكيف خدعه باستسلامه الماكر ، وكيف خانه بضربته ثم فر هارباً .

وأما حذيفة فقد فرح بما فعل الحارث وود لو كانت ضربته قاتلة ، حتى يريح العرب من عنترة .

فقال الحارث :

إن عنترة لا طاقة لفارس بلقائه ، ولو لم أخدعه وأضربه تلك الضربة ما نجوت من يده ، وإن كان فى عمره بقية فلن يتركنى أنعم بالحياة ، ولهذا فلن أتمكن منه إلا بالحيلة وأرجو أن أوفق إلى ذلك .

وفى الصباح ظهر عنترة فى الميدان معصوب الرأس ، ونادى :

لا تظنوا يا بنى فزارة أن خدعة الحارث الخائن قد نالت منى نيلا ، ولكنها أغلقت أبواب الرحمة بكم فى قلبى ، ولن أترككم الآن إلا رمماً فى الثرى وجيفاً .

فاهتز قلب حذيفة رعباً ، وطلب الحارث بن ظالم ليجيبه ويبرز إليه ، فقيل إنه هرب إلى مكة ليلا ، فى ثلة ممن هم على شاكلته فى خبث النفس ولؤمها ، فقال حذيفة :

قبحه الله ولعنه ، لقد أوغر صدر عنترة علينا بخديعته وغدره ، ثم هرب منه ، وتركنا نلقى جزاء خبثه وفجوره .

ولما لم يبرز إلى عنترة أحد ، حمل على الفزاريين يومه ، فزلزل أقدامهم

وجعلهم يبيتون وهم من الرعب فى شبه إغماءة لا يكادون يفيقون منها .

ودامت الحرب ثلاثة أيام لقى فيها الفزاريون ما يشيب الأطفال ، ثم فر أنصار حذيفة لائذين بأكناف الصحراء ، وتخلى عنه من جادوا بعونه من كل حليف وصديق ، ولكن حذيفة لم ينفد صبره ، فجمع جنده وأنصاره ، وعاهدهم على أن يخوضوا فى الصباح المعركة على ألا يخرجوا منها إلا فائزين أو هالكين .

وبينما المعركة على أشدها ، وجموع بنى فزارة تتناقص كثرتها وينهار بنيانها ، إذ رأوا غبرة لجيش قادم ، فظنوها للحارث بن ظالم جاءهم بمدد من رجاله ، وبعد ساعات من النهار انكشفت تلك الغبرة عن قبيلة حجازية أشرفت على الجمعين صائحة منادية :

يأيها العرب ؛ قد جاءكم سيد الحطيم وزمزم ، فأغمدوا سيوفكم ، واستمعوا لما يقول .

قرت السيوف فى أغمادها ، وانتظر الفريقان ما سيكون من أمر سيد الحطيم وزمزم ، عبد المطلب بن هاشم .

٥

تقدم عبد المطلب بن هاشم وعن يمينه عبد الله ابنه ، والد خاتم الرسل ، سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وعن شماله ابنه الآخر أبو طالب والد على كرم الله وجهه ، ثم وقف على ربوة عالية وقال فى صوت جهورى ، يسمعه الأقرب والأبعد من الجمعين .

الحمد لله الذى خلق الأرض والسماء ، وقهر عباده بالموت والفناء ، وانفرد بالدوام والبقاء ، يا بنى عدنان ، ما بالكم دب الشقاق بينكم ، فقطع أرحامكم ، وأهلك أنفسكم وأضعف جمعكم ، ونقض اتحادكم ، وأزل عن الصراط السوى أقدامكم حتى فزعنا من قتالكم ، إشفاقاً عليكم وإبقاء على قوتكم وهيبتكم ! ! فأغمدوا سيوفكم ، حتى تجردوها لإقرار شريعة تصلح فاسدكم ، وتمحو الغشاوة عن أبصاركم ، وتزيل الأقفال عن قلوبكم ، ولتردوا بها الضال إلى رشده ، والجاهل إلى عقله وصوابه ، فكم أفنت قبائل ، وأبادت أفخاذا وبطوناً ، واعلموا أن النخوة العربية فى احتمال المكروه إبقاء على الأخوة ، واحتفاظاً بالأهل والعشيرة ، فكلكم من آدم لا فضل لأحد على أخيه إلا بما يتحلى به من عظيم الخلق ، وكرم السجية ، ولين العريكة ، وجميل الصفح والمغفرة ؛ وليكن

الشيخ عبد المطلب وعن شماله عنترة وعن يمينه قيس وحذيفة و بعض شيوخ العرب

لكم فى هؤلاء القتلى خير رادع وأهدى سبيل .

كان لهذا القول أثره البالغ فى نفوس الجمعين ، فذهب إليه حذيفة وأعلن استسلامه والعمل بنصحه .

ثم تقدم قيس واعتذر عما فعله ببنى فزارة ، بما قصه عليه من غدرهم ، وصب النكال على أحيائه فى غيبته .

فقال عبد المطلب :

لقد علمت عنكم كل شىء ، فجئتكم لأصلح ذات بينكم ، ولتقيموا ستاراً كثيفاً بينكم و بين ما مضى من أيامكم ، فلم يصب فرسانكم إلا بما كتب عليهم ؛ إذ أن الآجال محدودة ، للخالق أجمعين ، لا يستأخرون عنها ساعة ولا يستقدمون ، فتم بذلك الصلح وتعاهد الجمعان على ألا يشهر أحدهما سيفاً فى وجه الآخر ، وكان هذا الصلح وقاية لبنى فزارة مما كانوا قد أشفوا عليه من هزيمة وفرار .

ثم ذبحت الذبائح ، ومدت الموائد ، فأكلوا هنيئاً ، وشربوا مريئاً ، وأقام الشيخ عبد المطلب وصحبه فى ضيافة بنى فزارة ثلاثة أيام ، ثم دعاه قيس أن يصحبه إلى دياره ، ليشرف العبسيون بمقامه بينهم أياماً .

* * *

سار الشيخ عبد المطلب مع قيس وجيشه ، وصحب معه حذيفة بن بدر ، وكان قد أعجب بعنترة وفصاحته واستقامة حديثه ، ورجاحة عقله

وسماحة خلقه ، فقربه منه ، وأكثر من ملازمته ، والتحدث إليه ، وحمايته فى غيبته ، وقطع لسان من يناله بسوء فى غير وجوده ، معلناً أن الناس سواسية ، لا يميز بعضهم عن بعض إلا كرم الخلق ، وعظيم المواهب ، ونيل المقاصد .

ولما ثوت بهم الديار أشار الشيخ عبد المطلب على قيس أن يحضر إليه الأسود أخا النعمان ليصلح بينهما ، فصدع بمشورته ، وأحضره لتوه وساعته ، بعد أن فكه من قيوده ، وألبسه حلة تليق به ؛ فقوبل وجلس فى حفاوة فائقة ، وإكرام عظيم ، ثم قال له الشيخ عبد المطلب :

إن أخاك النعمان ملكه الله قبائل العرب ، وجعله نائب كسرى ، لا ليفسد فى الأرض ويهدم بنيان الجماعات بسطوته وجيشه ، ولكن ليكون أداة سلام ، ومبعث صلاح بين الناس . وليكون بولايته أمورهم كالوالد لأولاده ، يكفلهم صغاراً ويرحمهم كباراً ، على أن الله الذى ملكه لن يتركه يعبث فى خلقه ، وإن أمهله رويداً ، فسيأخذه أخذ عزيز مقتدر ، فكن رسول سلام بينه وبين قيس ، وذكره بما بينهما من نسب وقرابة ، ووثق ما بينهما من رباط الوئام والألفة .

فقال الأسود :

لم يكن ما كان بينهما إلا من أجل الحارث بن ظالم ، وقد هرب إلى حيث لا يعرف له مقر ولا مقام ، وسأنفذ نصحك وأعيد الحال

بينهما إلى ما كانت عليه من مودة ورحمة .

وبعد أيام قضوها فى ضيافة قيس ، رحل كل من الشيخ عبد المطلب وحذيفة والأسود ومن كانوا قد أسروا معه إلى ديارهم ، أما عنترة فلا يزال قلبه يغلى من الحارث ، ويود لو عثر عليه حتى يرديه ويقتله .

٦

جعل عنترة يسأل عن الحارث كل من هب ودب ، حتى عثر برجل من زهاد بنى عبس اتخذ البيت الحرام « مكة » مقاماً ، فسأله عن الحارث فقال إنه مقيم بالبيت الحرام ، يأكل ويشرب مما ينهبه من العرب ، وإن صدره ليضطرم غيظاً منك ، وحقداً عليك ، ولقد رأيت منه أمراً منكراً .

فقال عنترة : وما هو ؟

فقال الرجل الزاهد : كان يمشى حول البيت الحرام ذات يوم ، فرآه عمرو بن الأطنابة الخزرجى ، فأنكر عليه أن يمشى مَرَحاً ، معجباً بنفسه ، فسأل عنه فقيل : الحارث ابن ظالم .

فقال عمرو : الذى اغتال خالد بن جعفر وهو فى حمى من نومه وراحته ؟ :

فقيل : نعم .

فالتفت إلى الحارث قائلا :

فعلت ما يفعله الجبان العاجز ، فقد حبسه عنك ، وأوثقه بين يديك نومه ، فهلا أيقظته حتى يكون مثلك عند لقائه ؟ ! !

فنظر الحارث إليه نظرة المغيظ المحنق وقال :

عسى أن ألتقى بك فى غير هذا المكان فأقتلك، وأنت فى يقظتك .

فقال عمرو : ثكلتك أمك ! ! إن لقيتنى فقد لقيت منيتك .

وافترقا وكل منهما يحمل للآخر كرهاً ، ويود لو لقيه حتى يقتله ؛ ولكن الحارث أخذ يتبعه حتى عرف منزله ، فلما كان الليل قرع الحارث بابه ؛ فقال عمرو : من بالباب ؟ !

فقال الحارث :

مستجير يستصرخك .

فقال عمرو :

فقد أجرتك .

وهب من نومه ، وتقلد سيفه ، وركب جواده ، وخرج إليه غير ملتفت إلى قول زوجته :

لا تخرج فإنى أجد ريح الدم والغدر فى صوت من يناديك . . . ! !

فلما خرج وجد الطارق الحارث بن ظالم ، فقال :

ما دهاك يا حارث ؟ ! !

فقال الحارث :

بليت بفارس فى البيداء ، ورغبت أن تخرج معى إليه ، فإما أصلحت بيننا ، وإما كنت مع المظلوم منا .

سار عمرو مع الحارث إلى الصحراء ، وبعد أن أبعدا فى سيرهما قال الحارث :

ألا تذكر استهزاءك بى وسخريتك منى ، إذ قتلت خالداً وهو نائم ؟ !

فقال عمرو :

نعم ! ! أذكر ذلك ولا أنساه .

فقال الحارث :

وقد جئت الآن لأقتلك وأنت فى يقظتك ، فخذ حذرك فإنى مبارزك .

فقال عمرو : ذلك ما كنت أبغى .

وجعلا يتصاولان ويتجاولان حتى لم يبق من الليل إلا أقله ، وكان عمرو قد أعيا الحارث وأرهقه ، حتى ظن أنه مقتول ، فركن إلى غدره وخديعته ، وقال :

لقد كنت أظن أنى غالبك ، ولكنى عرفت الآن أنك الفارس المجلى ، وأنك تفوقنى شجاعة وقوة ، ومعرفة بأساليب المبارزة ، وهذا ما كنت

أحب أن أعرفه ، وقد انتهيت إليه ، وليس بيننا دم نطلبه ، فليغمد كل منا سيفه ، ولنبدأ معا حياة جديدة ، ملاكها الوفاء والإخاء ، ولهذا أحب أن أعود معك إلى منزلك ، فنسجل هذا العهد بيننا ، بما نتناوله معا من طعام وشراب .

فظن عمرو صدقه ، وسار معه إلى بيته ، ولكن الحارث تغفله وضرب ظهره برمحه ضربة نفذت من قلبه ، فوقع على الأرض صريعاً لا حراك به ، وأخذ سلبه ، وفر إلى مقصده .

فاغتاظ عنترة ، وقال :

ثكلته أمه ! ! والله لأطلبنه حيث يكون حتى أقتله وأريح العرب من خيانته وغدره .

وشعر الحارث بأن أهل عمرو يترصدونه حتى يقتلوه ، فلبث عاكفاً فى الحرم لا يفارقه ، حتى علم أن الشيخ عبد المطلب قد أصلح بين عبس وفزارة ، والأسود أخى النعمان ، فعزم على أن يذهب إلى الحيرة ، حيث يلتقى بالأسود ، ليصلح بينه وبين النعمان ، ليأخذ له منه السلامة والأمان ، وفى جوف الليل غادر الحرم متنكراً .

٧

علم الحارث أن الأسود فك من أسره ، وذهب إلى النعمان أخيه ، فهاجر من مكة إلى العراق ، لينال العفو من النعمان على يد الأسود ، وفاء لسابق وعده ، وكان الأسود قد أخبر النعمان بما لقيه ، وأن نجاته لم تكن إلا بفضل الشيخ عبد المطلب بن هاشم ؛ فالتهب الغيظ على بنى عبس فى صدره ، وأصر على الانتقام منهم ، فقال له الأسود :

إن لم يكن فى جيشك فارس يستطيع أن يقهر عنترة أباد جيشك ، وإن كان ملء الأرض .

فقال :

ومن لنا بهذا الفارس الذى يغلب عنترة ؟ !

فقال الأسود : ليس له إلا الحارث بن ظالم ، فإن عنده من المكر والحيلة ما يغلب به عشرة فرسان كعنترة .

فقال النعمان :

وأين الحارث الآن ؟

فقال الأسود :

أنا أبعث إليه من يأتى به ، على أن تمنحه عفوك وأمنك ، حتى

نستخدمه فى قتل هذا الشيطان ، ونطفىء به سطوة بنى عبس وتكبرهم .

فرضى النعمان بما أشار به أخوه عليه ، وأرجأ الأسود بعث من يبحث عن الحارث ويحضره ، إلى بكرة غده .

وفى أثناء تلك الليلة حضر الحارث إلى الأسود ، والحى غارق فى سكونه ونومه ، ففرح بقدومه ، وأخبره أنه كان فى نيته أن يبعث إليه فى بكرة الغد من يحضره ، وأنه قد أخذ له الأمان من أخيه ، على أن يقتل عنترة ويرديه .

فقال الحارث :

إذا أمننى أخوك من الخوف على نفسى قتلت له من يشاء من الفرسان ، وإن كانوا من مردة الجان .

فقال الأسود :

غداً ستمنح الأمان ، وتغمر بالعفو والإحسان ، وإن أنت قتلت عنترة كانت لك السيادة على قبائل العرب وملوكها .

وفى الصباح جاء الأسودرسول من أخيه يدعوه إلى مجلس مشورته .

فقال له :

ارجع إليه وأخبره أن عنده ضيفاً لائذاً به ، ولن يستطيع الحضور حتى تؤمن ضيفه ، وتجعله فى حماك وأمنك .

فعاد الرسول وأخبره ما قاله الأسود فأمن ضيفه ، ثم رجع الرسول

وقال :

إن الملك أمن ضيفك ، ولو كان الحارث بن ظالم ، فاحضر به إليه الساعة ، فإن مجلس الرأى قد كمل بين يديه .

ذهب الأسود ومعه الحارث إلى أخيه النعمان ، ولما مثل الحارث بين يدى النعمان قبل يده ، ودعا له بالعز ورفعة الشأن ، واستغفره وأناب ؛ فأمنه النعمان من خوفه ، وفى قلبه من المكر به ما لا يعلم به أحد سواه ، وجعلوا يتحدثون فى شجاعة الفرسان ، ومن اشتهر منهم بمكره ومحاله ، حتى شاقهم أن يسمعوا من الحارث موطناً من مواطن خداعه ، حتى تغلب على خصمه ، فقال :

سأذكر لكم أولا من اشتهر من الفرسان بالشجاعة المنبعثة من قوة ونخوة ، والمبرأة من اللؤم والخديعة ؛ ومن اشتهر منهم بالشجاعة المعتمدة فى فوزها على المحال والخيانة والمكر .

أما الأولون فنهم دريد بن الصمة وعمرو بن معديكرب ، وعنترة بن شداد العبسى ؛ ثم سكت الحارث ، فقال النعمان :

ولعل الحارث بن ظالم أحدهم .

فقال الحارث : نعم ؛ وربما فاقهم ؛ ثم استمر قائلا :

وأما الآخرون فنهم مرة بن عبد العزى ، وفارس بن أوس ، وجرير بن مبادر ، ثم سكت .

فقال النعمان :

ولعل الحارث بن ظالم منهم .

فقال الحارث :

نعم ؛ وسأقص عليكم من مواقف محالى وغدرى عجباً :

لما خفت على نفسى من عنترة ، بعد أن غدرت به ، وضربته ضربة جرحته ولم تقض عليه ، غادرت بنى فزارة فى عشرة من قومى طبعوا على ما طبعت أنا عليه من المكر والحيلة ، وقصدنا مكة ، لائذين بالبيت الحرام، ولما نفد ما معنا من الأموال التى أخذناها من بنى فزارة خلسة ، خرجنا إلى البرية للكسب والرزق ، فطال بنا المسير ، ولم نقع على شىء نقتات به ، حتى ألح علينا الجوع والعطش ، فلاح لنا فى البيداء بيت مضروب ، وعلى بابه رمح مركوز ، وفرس ملجم ، وسيف معلق فى سرجه ، وغلام فى طلعة البدر ، قد جلس أمام قدر يوقد النار من تحته ؛ فسرنا إليه حتى كنا بين يديه ؛ فقلنا :

ضيوف أرهقهم السير ، وألح عليهم العطش والجوع .

فابتسم الغلام ابتسامة مشرقة بالكرم ، وسجاحة الخلق ، وسماحة النفس ، وقال :

على الرحب والسعة ، فهذا طعام عالجت نضجه لكل طارق أو عابر .

ولما أجلسنا على فرح يتألق فى وجهه ، وكرم يبدو فى ابتسامته ، وإشراق جبينه — مضى إلى الخباء ، ثم خرج يحمل قصعة مملوءة لبناً وعسلا ، ووضعها بين أيدينا وقال :

دونكم هذا ، تطفئون به نار العطش ، وتسكتون به عصافير بطونكم ، إلى أن يتم نضج طعامكم ، فتنعموا بالطعام والشراب .

ولما طعمنا وشربنا قال أحد أصحابى :

والله ما فى خيلنا مثل هذا الجواد الذى لهذا الغلام :

فقلت له :

دعنا من هذا إلى من ضربت عليها تلك القبة ؛ وكانت فتاة عربية ، فى ربيع حياتها ، ونضرة جمالها ، وقد شغفت بها ، فقلت للغلام :

نحن من فتاك العرب ، وقطاع السبل ، جبلنا على أن نسىء إلى من أحسن إلينا ، ولا نرقب فى كريم أو ذى معروف إلاً ولا ذمة ، وقد أكرمت مثوانا ، وليس لك عندنا إلا القتل ، أخذاً بسنتنا ، وجرياً على فطرتنا ، ولأنك فى غرة حياتك ، فقد ضربنا صفحاً عن قتلك ، على أن تأخذ جواداً من جيادنا ، وتركبه إلى حيث تشاء ، تاركاً جوادك هذا ، وخباءك بمن فيه .

فاربد وجه الغلام وقال :

إن التى فى الخباء أختى ، وقد خطبها من أبى الملكُ قيس بن مسعود ،

وغشمُ بن مالك سيد بنى عامر ، وغيرهما من سادات العرب ، ولكنها
اختارت العزلة ، وآثرتها على العشير والزوج ، فجئت بها إلى هذا المكان ،
برًّا بها ، ونزولا على إرادتها ، معتصمين فى وحدتنا هذه بالنخوة العربية ،
وإباء الطبع العربى أن يبغى حاجة له من فتاة ، أو امرأة لا حول لها
ولا قوة ، فقلت :

نحن لا نعرف إباء ولا نخوة ، ولكنا عبيد الأنانية والأثرة ، فاستمع
لما نقول : إما نجاتك بالرحيل ، وإما جعلنا لحمك طعاماً للوحوش ،
وأما أختك فهى خير من وقعت فى يدنا .

فقال الغلام :

ما دمتم مصرين على فعلتكم هذه ، فأمهلونى حتى أوصى أختى ،
بما أريد أن تنقله عنى ، إلى أبى وأمى .

فقلت :

ذلك ما لا نحول بينك وبينه ، فادخل إليها وأخبرها بما تشاء ؛
ثم ارحل عنا إلى حيث تريد .

ولما أخبر أخته ، بما دار من الحديث بيننا وبينه ، طلع علينا فركب
جواده ، واستل سيفه ، وقال :

لقد علمت أنكم عصبة لئام لا تكرمون ، فلتخرجوا إلى مبارزتى
واحداً واحداً ، حتى يقضى الله بينى وبينكم ، فالموت ذوداً عن عرضى

ودفاعاً عن أختى ، أحلى مذاقاً من الشهد فى فمى ، وهو لى الحياة الخالدة .

فقلت له :

ذلك رأى جميل — وفى ظنى أن أضعف فارس ممن معى لا يكلفه
قتل هذا الغلام عسراً ؛ ولكن خاب ظنى فيه ، فكان كلما بعثت إليه
فارساً التقمه ، وضربه ضربة يجعله بها جثة هامدة ، حتى لم يبق من صحبى
إلا واحد ، فقلت له :

جاءت نوبتك ، وعسى أن تثأر لصحبك ، بقتل هذا الغلام !

فقال :

لن أبارز هذا الفتى أبداً ، وإن كنت مصرًّا على قتله ، فدونك
ومبارزته ؛ فلم أجد مفرًّا من القيام إليه ، فسألنى عن اسمى قبل أن يبارزنى
فقلت :

اسمى الحارث .

فقال :

ارجع إلى مجلسك حامداً ربك ، فإنى مقسم ألا أبارز أو أحارب
شخصاً سمى باسمى ، ولو رأيت فيمن صرعته من صحبك من يدعى الحارث
ما بارزته .

فرجعت إلى صاحبى وقلت له :

لقد سمعت ما قاله الغلام ، وعرفت امتناعه عن مبارزتى ، فقم إليه ؛

الغادر اللئيم الحارث بن ظالم ، وأمامه فتاة همت بالانتحار لقتله أخاها

فقام ولم يكن مصيره بين يدى الغلام إلا مصير صحبه التسع السابقين ؛ ثم ذهب الغلام إلى أخته ، وانتظرت ساعة أو تزيد ، ثم تسللت إلى خبائهما ، فرأيته نائماً ورأسه على فخذها ، وهى منكفئة عليه ، وفى نومها العميق ، فتناولت خنجرى وذبحته ، فانتبهت أخته فزعة ، وتناولت خنجره ، ووضعت ذبابته فى صدرها ، وضغطت عليه حتى نفذ من ظهرها ، وانتهت بذلك حياتهما ، فأخذت أموالهما ، وأويت إلى البيت الحرام . ولما بلغنى قدوم الأسود إليك حضرت مستغفراً تائباً .

وكان بالجلسة والد الفتاة ، ألقى به المطاف فى البحث عنهما عند النعمان ، فقال :

ربما كانت هذه القصة من صنع خيالك ، فهل لديك ما يؤيد صدقك ؟ !

فقال الحارث :

خاتم الغلام هذا .

فصاح الشيخ الوالد مستغيثاً بالنعمان :

هذا قاتل ولدى ، ثمرة وجودى ، وامتداد حياتى ، اغتنم هذا الفاتك فرصة نوم ولدى ، وخانه بذبحه ، ولو لقيه وهو يقظان لجعله طعاماً للطير وضوارى الوحش .

فقال النعمان :

اسكت ولا تطالب بثأر أحد فى مجلسى .

ثم أمر بإحضار الطعام والشراب ، وجعل الخدم يلقون فى كأس الحارث ما يفقده الوعى والشعور ، فلما أغمى عليه ، أمر أن يكبل فى قيود وأغلال من حديد ، وما كاد يفيق الحارث من غشيته وإغمائه ، حتى رأى نفسه حبيس قيوده وأغلاله ، فأيقن أن قد أوفى على مصيره ، وجاءه أجله ، وذكر لؤمه وغدره نادماً متحسراً ، ولكن فى غير جدوى ، فإن الله يمهل الظالم ولا يهمله ، حتى إذا أخذه لم يفلته ؛ ثم أمر الملك النعمان أن يحمل الحارث على جمل ويطوف العبيد الأحياء به ، فى ضرب وجيع ومهانة ، وأن يشنق على باب الدار التى أخذ الحارث منها شرحبيل ابنه وقتله ؛ وانتهت بذلك حياة آثمة غير مأسوف عليها .

وما كان لأحد أن يأسف لموته إلا الأسود الذى كان يدخره ، ليستعديه على عنترة ويقتله ، فقال لأخيه النعمان مخفيا حزنه عليه :

لقد كنت عازماً على قتله ، لو لم تعجل به ، وما أخرنى عنه إلا فكرة عنت لى ، وربما كنت تستحسنها ؛ تلك الفكرة أنا كنا نستبقيه ليقتل عنترة بغدره ، وبعد ذلك نقتله ، فنكون قد أرحنا أنفسنا من هذين الرجلين .

فقال النعمان :

لا أحب أن يراق دم كريم بيد غادرة ، وكيف يتعبنا عنترة ، وعندى من الجيوش قوة أستطيع بها أن أمحو وجود العبسيين ؟ ! إنى مستريح إلى قتل هذا الغادر الأثيم ، أما بنو عبس فسآخذ الأهبة لغزوهم ، وسوقهم إلى ديارى فى قيود الأسر والمهانة ، ولن أعفو عنهم حتى يدينوا لى بالطاعة ، وخفض جناح المذلة ، وستريك الأيام ما يحل بهم من الهوان والشدة . .

وفى خلال ذلك الحديث دخل حاجب النعمان يخبره بقدوم فارس غسانى ، ويستأذنه أن يحضر بين يديه ، فأذن النعمان له .

٨

اشتهر من بنى غسان فارس يدعى نصيراً ، فاق بالفروسية أقرانه ، وما كان لأحد أن يغلبه أو يبارزه ، وكان فارع الطول ، واسع المنكبين ، ممدود اليدين والرجلين ، كأنه من سلالة قوم عاد ، لعينيه بريق يملأ القلب رعباً وخشية ، وبلغ من شجاعته وبأسه ، ألا يقتل فارساً حتى يأخذ سلبه ويطلقه ثلاث مرات ، فإذا تصدى له فى المرة الرابعة قتله ، وكان إذا كسب نوقاً أو جمالا ذبحها وألقاها للوحش طعاماً ، حتى

اشتهر بين قومه بمقرى الوحوش .

خطب نصير هذا مسيكة بنة مجير بن سهل ملك حوارن ، فلم يستطع هذا أن يرده عنها ، خشية عطب ينزله هذا الفارس به وبأهله . ولكنه اشتط فى تقدير مهرها ، فجعله ألفى دينار ، وألف ناقة عصفورية ، ومائة من الغلمان والجوارى ، وعشر حلل كسروية ، وعشرة عقود من اللآلىء والجوهر ، عسى أن يكون فى هذا الشطط ما يزهد الفارس فى ابنته ويصرفه عنها .

فرح الفارس نصير أن استجاب الملك مجير لطلبته ، وسار فى خمسين فارساً إلى العراق لإحضار صداقها على نحو ما بينه ، وهناك قابل كبير حجاب النعمان ، وسرد له قصته وقال :

ولن يمنحنى النعمان شيئاً من هذا المهر حتى أبارز من يشاء من الفرسان ، آحاداً ومجتمعين ، وأغلبهم أجمعين .

فذهب الحاجب إلى النعمان ليعلمه أمر هذا الفارس ، ويستأذن له فى الحضور بين يديه ، فقال الحاضرون فى مجلس النعمان :

لقد عوضنا عن الحارث خيراً منه ، ولا ضير علينا أن نعطيه ما يشاء من الأموال ، إذا ما حارب بنى عبس وقتل عنترة .

فقال النعمان :

ولئن فعل ذلك فإنى معطيه ما يشاء ، وجاعله فى قبائل العرب خليفة ؛

ثم أمر الحاجب أن يحضره .

فلما دخل الفارس عليه حيا وسلم ، ودعا للنعمان بالعزة ودوام النعم ؛ وأجلسه بجانبه ، ثم طعموا وشربوا ، وجعلوا يتحدثون فى هذا الأمر وذاك ؛ والفارس لا يبدو خلال الحديث إلا حاضر البديهة ، سريع الإجابة ، متوقد القريحة ؛ ثم سأله النعمان :

ألم يكن من الخير لك ولأهلك وقومك أن تمنحهم النوق والجمال التى تذبحها للوحش والطير .

فقال :

ليس فيهم من لم أغمره بنعمتى وفضلى ، ولكنا قوم نصارى ، وفينا من لا يأكل لحم النوق والجمال .

فقال النعمان :

إن بنى عبس أعداؤنا ، وفيهم فارس يدعى عنترة ، وقد جرع جيوشنا من كئوس الهزيمة أشدها مرارة ، فإن أنت قتلته ، أو جئت به إلينا أسيراً ، فلك عندى ما تشاء من الأموال ، وكانت لك الحظوة الأولى لدينا .

فقال نصير الفارس :

انتظر منى قتله ، وإذلال قومه ، والفتك بكل من يحمل لك عداوة أو كراهية ، وتلك أمنية أبتغيها ، حتى أنال بذلك فخر الأبد ، ورفعة الخلود .

طابت نفس النعمان إلى ذلك الفارس ، وغالى فى إكرامه وراحته عشرة أيام ، ثم لبى رغبة الفارس فى عقد حفل جامع يشهد مبارزة سلمية ، بينه وبين جنده ، ولما كمل عقد الجمع ، خرج إلى الميدان ، ليبارز فرسان النعمان ، فغلبهم واحداً واحداً ، ثم طلب أن يحملوا عليه جميعهم حملة واحدة ، فتلقاهم بقلب من حديد ، وألوان من المبارزة أبطلت عملهم ؛ وجاء المساء وقد ظهر على نصفهم ، وكانوا ألفاً ، لم يستطع أحد منهم أن يحدث فيه أثراً أو يغلبه فى موقف من مواقفه ، ثم انصرف إلى النعمان فمنحه حللا كسروية ، وزاد فى اطمئنانه والركون إليه ، والأمل فى الانتصار على يديه ، وجعله زعيم جنده ، وصاحب الأمر والنهى فيهم ، وأقام هو وفرسانه عند النعمان مدة من الزمن حتى يأمره بغزو بنى عبس وقطع دابرهم .

وفى أثناء تلك المدة شاع بين القبائل قتل الحارث بن ظالم ، فحزن عليه حذيفة بن بدر ، إذ كان يعتمد عليه فى معونته ، ومحاربة بنى عبس والفتك بعنترة ، تنفيذاً لغدره المكنون فى صدره .

أما بنو عبس فقد فرحوا بإعدامه ، إذ صفا الجو لهم ، وأصبحوا لا يخشون غدره ومحاله ، ولبثوا فى فرح شامل ، وولائم جامعة ، وكثيراً ما كانوا يدعون حذيفة إليهم ، ليزداد به أنسهم ، ويقاسمهم أفراحهم وسراءهم ، وهم لا يعلمون ما يسره فى نفسه لهم .

وقد زاد همه ، وثقل عليه حزنه ، أن رأى بنى عبس جادين فى زفاف عبلة إلى عنترة ، وشاركه فى همه هذا مالك أبوها ، وعمارة بن زياد ، والربيع أخوه ؛ ولكن الربيع ما كان يبدى شيئاً من حزنه هذا ، إذ كان ثابت القلب ، لا تستخفه سراء ولا ضراء .

وما زالوا يتقلبون على نار من هذا الحزن الخفى ، حتى جاء حذيفة كتاب من الأسود يخبره بأمر الفارس نصير ، وأن النعمان سيبعثه على رأس جيش يسد الأفق إلى بنى عبس ، للفتك بهم ، وقتل عنترة حاميهم ، وإنزال عرب اليمن الفارين من القحط الذى أصاب بلادهم منازلهم ، وبذلك لا يبقى لبنى عبس وجود بين قبائل العرب ، وسيحل محلهم هؤلاء العرب اللائذون بالنعمان ، وسيكونون له خير جيران ، وعلى رأسهم هذا الفارس الغسانى العظيم ، وقد وصاه أخى أن يكون لك خير عون وأعز نصير .

فرح حذيفة بهذا النبأ ، وأسره فى نفسه ، ولم يبده إلا لسنان بن حارثة ، خشية أن يصل إلى بنى عبس ، فيعدوا له ما يستطيعون من عدة ، ثم جعل يفكر فى السبيل الذى يسلكه ، لينقض معهم عهده ، وينسخ الصلح والمسالمة بينهم وبينه .

وقد أزعجه أن بنى عبس أخذوا أهبتهم لزواج عنترة من عبلة ، فزينت الأحياء بمظاهر الأفراح ، وأخذت زخرفها وبهجتها ، وشاع الغناء ؛

وانتشرت حفلات اللعب والرقص فرحاً بزفاف عبلة ؛ ودعا قيس حذيفة أن يحضر الزفاف فى اليوم الموعود ، وكان بعد يومين من الدعوة .

كان عمارة فى غم أليم ، فلم يكن يحضر حفلة من حفلات الفرح ، وشاركه إخوته غمه وحزنه ، فضربوا عن الحضور صفحاً ، أما الربيع ابن زياد فكان أثبت منهم عقلا ، وأكثر مصابرة واحتمالا ، فكان دائب الحضور وفى صدره من الغيظ والألم ما لا تحتمله الجبال .

٩

كان عنترة قد قتل أبا الحصين بن ضمضم فى موقعة المريقب ، وكان الحصين فزارياً وابن خالة حذيفة بن بدر ، ولا يزال يذكر والده ، ويتحفز لأخذ ثأره ، فخرج غدوة يوم الدعوة إلى الصيد والقنص ، حتى أشرف على مراعى بنى زياد ، فوجد طالباً أخا الربيع جالساً تحت شجرة يتفيأ ظلالها ، وجماله ترعى تحت إشراف عبيده ، فقال له الحصين :

ما بالك جلست وحدك فى هذا المكان فى غير خوف ولا وجل ؟

فقال :

وكيف نخشى أحداً ونحن أولو بأس شديد .

فأغضب هذا الافتخار الحصين ، وذكر مقتل والده ، فضربه بسنان رمحه

ضربة قضت عليه ، ثم انقلب إلى أهله من بنى فزارة ، وأخبر حذيفة بما فعله ، فاستحسن عمله ، وأخبر أهله وعشيرته ، وقعدوا عن أن يذهبوا إلى وليمة زفاف عبلة ، وأعدوا عدتهم للقاء بنى عبس إذا ما جاءوهم ، لينتقموا منهم ، جزاء بما فعل الحصين بن ضمضم .

رجع عبيد طالب بن زياد إلى الأحياء باكين ، ينعونه إلى أهله وقومه ، فهبوا يتساءلون :

ومن قتله ؟

فقال العبيد :

قتله الحصين بن ضمضم الفزارى ، على حين غفلة منه ، وفر إلى دياره .

وبلغ ذلك النبأ بنى عبس فشملهم حزن عميق ، وتبدل الحال . فهجروا اطمئنانهم وفرحهم ، وهبوا متقلدين أسلحتهم ، ليثأروا لهم من بنى فزارة ، وفى اليوم الموعود للزفاف ذهبت جموع من فرسانهم إلى بنى فزارة ، وفى الطريق لقيهم بعض شيوخ بنى فزارة فسألوهم عما جاء بهم على تلك الحال ، فقالوا :

قتل الحصين بن ضمضم طالب بن زياد ، وجئنا لنثأر له .

فقالوا :

تلك فتنة فاجئة قد يستشرى داؤها ، ويعظم أمرها ، وتصيب

الأبرياء منا ، فانشدوا حقن الدماء ، وكفوا عن إراقتها .

فقال بنو عبس :

إن كنتم تريدون ذلك فسلموا إلينا القاتل .

فقالوا :

خير من تسليمه أن نعطيكم دية القتيل .

وهنا أقبل حذيفة فقال :

إن الحصين ابن خالتى وزوج ابنتى ولن أستطيع تسليمه ، ولكنى أعطيكم الدية أضعافاً مضاعفة ؛ فلما أخبر قيس بما قاله حذيفة قال :

ذلك رجل لا غناء لنا فى جواره ، وخير لنا أن نمحو آثاره، ونقطع دابر قومه ، فاستعدوا للمسير إليهم ، حتى نريح أنفسنا من جوارهم .

وقبل أن يبدءوا مسيرهم جاء قيساً عبد منعبيد أخته المتجردة وأخبره أن النعمان بعث إليه جيشاً لجباً ، وفيه فارس غسانى كأنه جيش النعمان كله ، ومثله معه ، قوة وشجاعة ، ومهارة فى القتال والنزال ، وذلك لما يحمله لكم من الغيظ ، بسبب موقفكم منه فى مسألة الحارث بن ظالم ، قاتل ابنه شرحبيل ، وقد اغتنم فرصة قدوم عرب من أطراف اليمن ، هجروا أوطانهم فراراً من القحط الذى أصابها ، وقد لاذوا به ، فأتاح لهم أن يسكنوا فى مساكنكم ، وبعثهم مع جيشه وفارسه الغسانى مقرى الوحوش ، وهم قوم جياع ، لا يهاب أحدهم موتاً ، ولا يخشى أسراً ، ثم قال :

وقد قال النعمان : وإن لامنا الشيخ عبد المطلب قلنا له : لقد أبى هؤلاء العرب النازحون من بلاد اليمن ألا يسكنوا إلا فى أرض بنى عبس ، لثأر قديم بينهم ، يريدون أن ينالوه منهم ، وأرسلت معهم جيشاً منى لحمايتهم ، لأنهم استجاروا بى وقد أجرتهم ؛ ثم استمر العبد قائلا :

وقد هجر أختك المتجردة ، فخذوا حذركم ، وأعدوا عدتكم ، لجيش يطلب الموت فى قهركم .

فقال قيس :

ولم تأخرت فى إخبارنا ؟ ! أما كان من الأصلح أن تعجل بمجيئك ، حتى نجمع جموعنا ، ونستعين بحلفائنا ؟!

فقال العبد :

لقد خشى النعمان أن يتسرب إليكم نبأ قدوم جيشه فجعل على السبل رقباء ، حتى لا يفلت أحد بهذا النبأ إليكم ، وجعلت أنا أترقب الفرصة ، حتى أتيحت لى ، وقد لقيت فى سفرى هذا نصبا ، إذ كنت أسير ليلا ، وأختفى نهاراً ، إلى أن حضرت إليكم هذه الساعة .

رجع قيس إلى داره ليعد عدته للقاء جيش النعمان ، فبعث إلى عنترة ، وكان عنده ابن أخته الهطال ، وجماعة من بنى غطفان ، جاءوا ليشهدوا حفل الزفاف ، فلما حضر بين يديه قال له :

لقد أبانت الأيام خبث الأسود ولؤم طبعه ، فذهب إلى أخيه ولم

يفعل شيئاً كما وعدنا ؛ وربما زادت نفسه غضباً علينا ، فقد أرسلت إلى المتجردة عبدها ؛ وهنا سرد قيس عليه نبأ هذا العبد مفصلا ، فقال عنترة :

لو مكنتنى من قتل الأسود ومن معه من الأسرى ما حصل شيء من هذا !

فقال قيس : ما فات لا يعود ، فما لديك من الرأى فى لقاء هذا الجيش الذى لم يبالغ العبد فى تقديره ، وعظيم آثاره ، وبالغ أخطاره ؟

فقال عنترة :

نذهب إلى بنى فزارة ، وبعد أن ننتهى منهم نعود لننتظر قدوم الأعداء ، ولا تجعل لهم فى نفسك قدراً ، فسأصب عليهم الويل والدمار ، وإن كانوا أكثر مما هم عليه عدداً .

فقال قيس :

نخشى أن نغيب فى بنى فزارة يومين أو ثلاثة ، فتصيبنا منهم دائرة ، فى أموالنا وأهلينا الذين نخلفهم فى المنازل دون حامية .

فقال عبد المتجردة :

يا مولاى ! ما أظن أن القتل يكون فيكم كثيراً ، لأن النعمان نهى رجاله عنه ، وحرضهم على أن يأسروا منكم عدداً عظيماً ، يحضرون بين يديه ، فيصب عليهم عذابه صباً ، قهراً لنفوسكم ، وخضداً من شوكتكم ،

ومهانة لتكبركم ، ثم يخلى سبيلهم ، معللا ذلك بأنكم أقرباؤه على أية حال ؛ أما فارس غسان ، مقرى الوحوش ، فقد أخذ على نفسه عهداً أن يحضر إليه رأس عنترة أو يسوقه أسيراً موثقاً ، لقاء ألف ناقة عصفورية ، يأخذها من النعمان ، لتكون صداقاً لزوجه .

فابتسم عنترة ابتسامة الساخر المستكبر ، وقال :

سيرى هذا الفارس أينا يكون أسيراً أو قتيلا .

وبعد ذلك أمر قيس أن ينادى فى قومه أن يأخذوا استعدادهم للقتال بكرة الغد ، ثم بعث إلى الربيع ولما جاءه قال له :

لا تظن أننا أغفلنا أمر أخيك ، ولكننا أرجأنا قتال بنى فزارة حتى نقضى على جيش النعمان ، وبعد هذا سنذهب إلى الفزاريين ، فنريهم الموت رأى العين ، ونصب عليهم العذاب ضعفين ، حتى لا تقوم لهم بعد ذلك قائمة .

١٠

لبث حذيفة فى قلق مما عسى أن يحل به من غزو بنى عبس لديارهم ، حتى جاءه الخبر أنهم كانوا قادمين إليكم ، فأخبروا أن النعمان بعث إليهم جيشه ليبيدهم ، فرجعوا إلى الديار يستعدون للقائه ، وأرجئوا غزو

ديار الفزاريين إلى أن ينتهوا من أمر هذا الجيش ، فسرى عن حذيفة ، وأمر قومه أن يستعدوا للكفاح وقتال بنى عبس مع جيش النعمان .

وبينما هم يستعدون جاءه رسول النعمان يخبره أن ياتى بجيوشه فى أرض بنى عبس غداً ، ليعين بعضهم بعضاً فى القتال .

وفرح حذيفة بذلك ، وكان هو وجنوده وجنود النعمان فى موعدهم عند أرض الشربة والعلم السعدى ، وقد فرشت الأرض بالجنود الغازين من كل جانب ، ومن خلفهم قبابهم وخيامهم المضروبة .

نهض عنترة فى ثورة متوقدة ، وجعل يحصد بنى فزارة حصداً ، وجاء الليل وهم فى ضيق مما فعله عنترة بهم ، ثم سكن كل فى حلته ، حتى يستأنفوا القتال فى الصباح ، وأوى عنترة إلى منزله ، مصاباً بجرح فى وجهه ، من الحصين بن ضمضم ، فجعل قيس وأهل عنترة يضمدون جرحه ، ويدعون له بالسلامة ، حتى يظهروا على أعدائهم بفضله .

ولم يشترك الفارس الغسانى مقرى الوحوش هو وجنوده فى القتال هذا اليوم ، ورأى من شجاعة عنترة ما أعجبه ورفع قدره فى نفسه ، وقامت الحرب بين العبسيين والفزاريين فى اليوم الثانى ، وانتهت بانتهاء اليوم ، وبنو عبس ظاهرون على بنى فزارة ، ولم يرد الفارس الغسانى أن يشترك فى الحرب هذا اليوم أيضاً ، حتى تكون الحرب قد نالت من بنى عبس ، وأصابهم الكلال والعنت ، وحينئذ يكون أقرب إلى تحقيق مأربه فيهم ،

وقد يكون امتناعه من الاشتراك فى القتال لأول بدئه أن يظهر للفزاريين عجزهم عن التغلب ، وأن ما يكون من قهر العبسيين إنما هو له ولجنده .

وفى اليوم الثالث أصر الحصين بن ضمضم على أن يبرز إلى عنترة ، ليتولى هو قتله ، حتى يكون له فخر التغلب عليه ، وقال :

ليس من الرأى أن أجرحه ، وأترك غيرى يقتله ، بعد أن ضعفت قوته وزعزعت شباة جرأته ، وبرز فى الصباح منادياً :

أين عنترة ؟ إذا وجد عنده الشجاعة والجرأة فليبرز إلىّ فإنى لا محالة قاتله .

وما كاد ينتهى من قولته حتى كان عنترة فى لمح البصر أمامه ، ينذره موتاً عاجلا ؛ ثم جال به جولات أضاعت رشده ، ثم ضربه برمحه ضربة أردته قتيلا ، فهم حذيفة وقومه أن يهجموا على عنترة ، ولكن حجاب النعمان حالوا بينهم وبين ما يريدون ، وقالوا :

انتظروا ما يفعله الفارس الغسانى بعنترة ، فقد أخذ على نفسه موثقاً أن يقتله .

ثم برز له الغسانى على جواده ، فرأى من بلاء عنترة وقدرته ما بعث الحيرة فى نفسه ، وانتهى هذا اليوم دون أن ينال أحد من صاحبه نيلا ، وأرجئت المبارزة إلى اليوم التالى ..

ولما طلع النهار التقيا ، وحاول كل منهما أن يقهر خصمه ، وكان

عنترة أقسى حملة على صاحبه ، وأشد مراساً ، فلم يذقه طعم الراحة حتى فترت قوته ، ورأى الموت أقرب إليه من حبل الوريد ، وإذ ذاك طلب إلى عنترة أن يمهله ويترك مبارزته إلى حين ، فأبى عنترة أن يستمع له وقال :

لن أسكت عنك حتى تسكت حركتك ، وأطفئ مصباح حياتك ،

فأرخى الفارس العنان لجواده ، وانطلق كالريح هارباً ، فقال عنترة لأخيه شيبوب :

عليك به قبل أن تبتلعه الصحراء ، ولا ترجع إلىّ إلا وهو معك .

فانفلت شيبوب كالسهم من خلفه ، فلما أنهكه التعب وقف يخاطب شيبوباً ، فقال :

لقد أرهقتنى من أمرى عسراً ، وليس لى إلا هذا الجواد ، فإذا أخذته وأخليت سبيلى كان لك الشكر الجزيل .

وكان عنترة قد أدركهما وهما يتحدثان ، ووجد الغسانى يرجو شيبوباً أن يأخذ جواده ، ويتركه يمضى إلى حيث يشاء ، فقال عنترة :

ما طلبناك للمال ، ولكنك ظننت فى نفسك القوة فسخرت منا ، ونفخك الغرور ، فجئت تقاتلنا ، فحق علينا أن نمحو هذا الغرور الذى جعلك تطمع فى غير مطمع ، وتطلب رأس عنترة .

فقال الفارس الغسانى : ولكن بان لى الآن أنى كنت فى الضلال هائماً ، ولقد خرجت أطلب مهر الفتاة التى خطبتها ، وكنت أحسب

أنى الفارس المجلى الذى لن يغلبه غالب .

فقال عنترة ، وقد رق لحالته :

ارجع معنا وأنا أعطيك ما تشاء من المال ، وأعينك على زواجك من فتاتك وإن أبَى أحد عليك هذا الزواج نفذته رغم أنفه ، أو أنزلت به وبأهله وقومه من البلاء والضر ما لم يخطر لهم على بال ، فإنى عاشق وأعطف على العاشقين .

فقال الغسانى :

وإنى أحمد لك هذا الفضل والعون الحميد ، وما بقى لى بعد ذلك حاجة لدى النعمان وماله ، وأصبح أمرى فى يدك ، واعتمادى على كرم نفسك ، وأقسم لك بمن رفع السماء وسواها أن أكون لك أوفى صاحب وخليل ، وأن أكون يدك التى تبطش بها فى شدتك ، وأن أدفع بسيفى هذا كل عدو يناوئك ، ويقف فى سبيلك .

* * *

ولما رأى حذيفة أن الغسانى فى ضيق شديد ، وأن عنترة أوشك أن يغتاله وهو يبارزه ، صاح فى قومه : أن أدركوا صاحب النعمان ، وأنقذوه من مخالب هذا الشيطان ؛ فهبوا يهجمون على عنترة ، ولكن العبسيين أسرعوا إليهم ليقفوا فى سبيلهم ، واشتبك الفريقان ، وحمى بينهما وطيس الحرب ، وكان عنترة وأخوه شيبوب قد غابا فى الصحراء خلف

الغسانى صاحب النعمان، وساعد حذيفة فى ذلك الهجوم جيش النعمان، وكان عدده يفوق عدد العبسيين أضعافاً مضاعفة، فهزموهم أشنع هزيمة، ونهبوا أموالهم، وأسروا نساءهم وعبيدهم، وفيهم عبلة وزوج شداد والد عنترة، وجعل العبسيون يقاتلون، وتكاد نفوسهم تذوب حسرة على ما أصابهم من هزيمة منكرة، وقد ظنوا أن عنترة قد قتل، لأنه لو كان فيهم ما قامت لهؤلاء الأعداء قائمة، وإن كانوا لا يحصون عدداً.

وبينما هم على هذه الحال البائسة، إذ سمعوا أصواتاً تردد:

أبشرى يا عبلة بالخلاص، فقد جاءك عنترة، حامى الأهل والعشائر.

فلما سمع ذلك قيس وجنده، ورأوه يحصد الأعداء حصداً، وعن يمينه الفارس الغسانى يجزهم جزًّا، وشيبوب من خلفهما يحمى ظهرهما، فرحوا بذلك، وقويت روحهم، وأضاء الأمل فى نفوسهم، وانهالوا على أعدائهم يلتهمونهم بأسلحتهم ورماحهم، وابتأس الفزاريون، وعجبوا أن رأوا الفارس الغسانى يؤازر عنترة وكان قد جاء ليقاتله، فخابت آمالهم، وزلزل بنيان جمعهم، ولاذوا بالفرار، هاربين فى مسالك القفار، مخلفين وراءهم ما كانوا قد نهبوا، ومن كانوا قد أسروا.

وفى هذه الموقعة ماتت تماضر أم الملك قيس بن زهير، وذلك أن حمل بن بدر أخا حذيفة كان قد أسرها، فأركبها ناقة وسار بها فى بطن الوادى، وحاول إذلالها فألقت بنفسها من فوق الناقة، فهوت على رأسها،

وأسلمت إلى البارئ روحها، صوناً لعفتها أن تمسها يد بسوء.

ولما بلغ ابنها قيساً نبأ وفاتها، حزن عليها حزناً شديداً، وأعلن أنه سيقتل حذيفة بيده فى أمه، وكان حمل بن بدر قد هرب مع الهاربين، الذين لم يذهبوا إلى أوطانهم، ولكنهم تفرقوا فى القبائل يستصرخون رجالها وفرسانها، أما حذيفة فقد نزل فى أربعين بطلا على غدير فى سبيله، وكان معه ابنه حصن، يدربه على خوض المعارك، ويريه قسوتها، ليروضه على الحرب والفروسية، وجعل أبوه يوغر صدره على بنى عبس، ويوصيه أن يحاربهم ولا يترك فرصة تتاح له فى القضاء عليهم، حتى لا يبقى منهم أحداً.

وبينما هم فى فزعهم غارقون، ولهلاكهم مرتقبون، إذ رأوا قيساً وجنده يحيطون بهم من كل جانب، ويأخذون عليهم مسالكهم ومذاهبهم، ثم سمعوا قيساً يصيح فيهم:

يا بنى بدر؛ إلى كم أحلم عليكم وأنتم تجهلون، وأعفو عنكم وأنتم تغدرون، وأصدقكم العهد وأنتم تنقضون وتخونون؟! ليذكر حذيفة وأخوه ما قدمت أيديهما، وانظروا الآن ماذا تفعلون؟

فقال حذيفة:

أما الإخلاص منا لكم فلا تطمعوا فيه، ومهما تأخذوا ميثاقنا فلن تجدوا وفاء منا، ولو قدرنا عليكم لأهلكناكم، والموت أحب إلى نفوسنا

من أن نراكم، ولقد كنا نفكر فى أن يقتل بعضنا بعضاً، ولهذا فقد سلمنا أنفسنا، فأنفذوا حكمكم فينا.

بعد هذا تقدم قرداش بن هانئ، وضرب حذيفة بحربته، فمات، وتقدم الربيع بن زياد فأطار رأس حمل بن بدر بسيفه، وجاء الربيع بن الأصلع فقتل يزيد بن بدر أخا حذيفة، وأقبل الفرسان تباعاً، كل يقتل من يختاره، ويكون له ثأر عنده؛ ثم جاء الفتى حصن بن حذيفة قيساً وقال:

إن كنت لا تزال مصرًّا على قتل من بقى من الفزاريين، فليكن قتلى بيدك، وبسيف أبى حذيفة هذا، ثم أعد عنقه لضربة السيف؛ فقال قيس فى ألم:

لو فعلت هذا يا بنى قبل أن يقتل من قتل لعفونا عنكم، ولكن ما مضى لن يعود، وقد عفوت عنكم، وجعلتك المقدم من بنى فزارة، ترعاهم بمعونتى، ويطمئن بكم مقامكم بحمايتى، فلتخلف والدك فى قومك، راجياً لك نفساً طيبة، وسيرة حميدة.

وباتوا تلك الليلة، وقد عزموا على الرحيل فى غدوة النهار، وما كاد النهار يشق بضوئه حجب الليل، حتى رأى العبسيون غبار جموع مقبلة، فأمر قيس أن يأتوه بنبئها، فقيل له:

نساء بنى فزارة فى حال من الحزن يرثى لها، قد جردن السيوف وجئن لقتالنا.

فقال قيس يحق لهن أن يفعلن ذلك، فقد قتلنا بعولتهن وآباءهن وإخوتهن، ثم أمر حصن بن حذيفة أن يركب إليهن ويرجعهن إلى منازلهن، ما دام القضاء قد نفذ ولا مرد له، وأن يخبرهن بعفو قيس عمن بقى من بنى فزارة، فصدع بأمره، ورحل قيس وجماعته، وكان غضبان أسفاً على من قتل من بنى فزارة، أما جهلة جنده فكانوا على فرح عظيم.

وعكف قيس فى منزله، والوفود تأتيه معزية مهنئة، سبعة أيام، وهو شديد الحزن على بنى عمه الذين أرغمه سوء مسلكهم على أن يفعل بهم ما فعل، وكان بوده أن يكونوا أطهار النفوس، أوفياء الذمم، فتتوثق بينهم رابطة الإخاء، ويكونوا قوة فى وجه الأعداء.

١١

بعد ثمانية أيام دخل على قيس عنترة، والفارس الغسانى، والربيع بن زياد، وجماعة من بنى قراد، وما زالوا يحدثونه بما يذهب عنه الحزن ويزيل عنه الهموم والأحزان، وجعل هو يتحدث إلى الجالسين فى حروبه مع بنى فزارة، عازياً نصره عليهم إلى عنترة، والفارس الغسانى، ولكن هذا الفارس أعلن أنه كان يظن أن الدنيا لم تجد بفارس مثله، حتى التقى بعنترة، فعلم أنه كان فى ظنه على ضلال مبين، فقام عنترة وقال:

لا تروننى بعد الآن إلا ملبياً نداء هذا الفارس، وقد جعلت كل ما أملكه حلالاً له، وسأنجز وعدى معه غداة النهار، فأذهب معه، لأنفذ أمر زواجه من فتاته، لأنى كما تعلمون أعطف على المحبين، وأتمنى أن يجتمع شملهم، ويبسم الزمان لهم — وكان يقول هذا فى تأثر عظيم، فقال عمه مالك :

وأنا الآن قد أصررت على زفاف عبلة، ورحم الله تلك الخطة الغادرة التى كنا نسلكها معك .

عند ذلك أقسم قيس ليقيمن الولائم والأفراح من فوره، وأمر مالكاً أن يقوم إلى بيته، ليدبر أمره فى تنفيذ الزفاف والتعجيل به، فى أقرب فرصة، معلناً أنه لن يقبل بعد الآن أى عذر يؤجل الزفاف أو يبطئ تنفيذه .

قام مالك وصدره يغلى غيظاً، لإصرار قيس على التعجيل بزفاف عبلة، وهو لا يزال يخفى إباءه وامتناعه، وكان نبأ إصرار قيس على زواج عنترة قد ذاع فى الأحياء، فباتت فى فرح وابتهاج وسرور .

ولما أخبر مالك زوجه أن قيساً مصرّ على زواج عنترة، وأنه لن يقبل أى عذر يرجئه أو يبطئ تنفيذه، فرحت لانحلال تلك العقدة التى تجر عليهم البلاء كل حين ولأن الأيام جعلتها تؤمن أن عبلة لا يصلح لها إلا عنترة .

أما عنترة فإنه لما ذهب إلى منزله أحضر عروة بن الورد إليه، وأنبأه أن عمه مالكاً قد عزم أن يزف عبلة إليه بعد ثلاثة أيام؛ ولكنى أحب أن أجعله بعد عشرة أيام، حتى ندعو الأحباء والأصدقاء، ليحضروا حفل الزفاف وولائمه، فقال عروة :

ولا ينبغى أن يتم زفافك دون أن ندعو الأصدقاء والخلان، ولا سيما الأمير بسطام بن قيس، الذى أبلى معنا بلاء حسناً فى قتال بنى كندة، ووعدته أن تدعوه لحضور حفلة الزفاف ووليمته .

فقال عنترة :

عليك أن تتولى من الآن دعوة من تشاء من الخلان والأعوان، ولا تترك أخاً يعتب علينا، وقد عزمت أن أذبح الذبائح التى تمكننى من إطعام كل غنى وفقير، وكل نبيه وخامل، حتى الوحوش والطير، ليكون الزفاف منقطع النظير، لا يستطيعه مدى الأيام عظيم ولا أمير .

فكتب عروة إلى جميع الأصدقاء، ومنهم بسطام، وحصن المازنى أخو مالك بن زهير من الرضاعة، وحجار بن عامر، ومعديكرب الزبيدى، ومشاجع بن حسان، وزياد سيد بنى غطفان، والهطال ابن أخت عنترة .

وأمر عنترة عروة أن يذهب إلى الشام، ليحضر مقداراً من الخمر يكفى المدعوين، لأنه لا يريد معونة الملك قيس وغيره فى نفقات زواجه،

فذهب عروة فى جماعة من صحبه إلى الشام ، ثم عادوا بعد تسعة أيام ، ومعهم من الخمر الشيء الكثير .

وأما قيس بن زهير فإنه أمر أن تقام السرادقات ، وتضرب القباب ، وترفع الأعلام، فنفذ العبيد ما أمر ، فهنا خيام للرجال ، وهناك خيام للسيدات ، ونزح إليها من فى الحلل، من كل ذكر وأنثى ، فرحين بهذا الزواج التاريخى الذى لا نظير له ، آمنين من طوارق الحدثان ، وتقلبات الليالى والأيام .

وكان عنترة يخرج كل يوم إلى بطون الأودية والجبال، ثم يعود ومعه من الحيوان الذى صاده الشيء الكثير ، حتى اجتمع له مقدار وفير جعله فى أودية بنى عبس، وجعل عليه رجالا يرعونه ويحرسونه .

ولما كمل بين يديه ما أراد من الذبائح أمر أن يقام سرادق عبلة العظيم ، الذى كان قد أحضره من عند الملك كسرى ، وكان مطرزاً بالذهب والدرر والجواهر الكريمة ؛ وكان هذا السرادق قد آل إلى كسرى من قيصر الروم الذى كان يدفع إلى كسرى جزية سنوية ، فأهداه إليه ، وكان ذلك سبباً فى تخفيف الجزية عنه عشر سنين ، ولما نزل عنترة فى أرض كسرى يطلب صداق عبلة ، منحه كسرى إياه فيما منحه من النوق العصفورية والهدايا والحلل والتحف، ولم يزل هذا السرادق محفوظاً لدى عنترة حتى أقامه فى زفاف عبلة هذا .

وكان بنو عبس يتوثبون فرحاً بزواج عنترة، ما عدا بنى زياد فإنهم كانوا يتقلبون على نار من الغيظ والحقد والحسد ، ولكنهم لا يظهرون للناس إلا فرحين رياءً ونفاقاً .

وأمر عنترة أخاه شيبوباً أن يأخذ نوقاً وجمالا إلى الجبال ويذبحها للطير والوحش ، فذبح شيبوب ونادى :

أيتها الوحوش الضارية والسباع الكاسرة والطيور الجارحة، هذه وليمة عنترة ، وهو يدعوكن إلى ضيافته، لتطعمن مريئاً من زاده ، فرحات بدخوله بابنة عمه عبلة .

وذبح عنترة لبنى عبس ألفى ناقة ، فطعم الرجال والنساء ، والفتيان والفتيات ، وقامت مظاهر السرور واللعب والرقص فى كل مكان .

وحضر الهطال فى ألفين وسبعمائة فارس من بنى غطفان، فذبحت لهم الذبائح وطعموا وشربوا ، وقاسموا بنى عبس أفراحهم ولهوهم .

وأقبل معديكرب فى خمسة آلاف من بنى زبيد، فلقوا كرماً واسعاً ، وحفاوة بالغة .

ثم أخذت جموع المدعوين تفد إلى عنترة تباعاً :

فهذا حجار بن عامر الكندى فى تسعة آلاف من فرسان كندة وساداتهم .

وهؤلاء تسعة آلاف من بنى خولان وأعيانهم .

زفاف عبلة

وهذا نعمة بن الأشتر صاحب جبل الدخان فى عشرة آلاف من شجعان قومه .

وهذا بسطام بن قيس فى ثلاثة آلاف فارس من رجاله .

فاجتمع لزفافه من الأعيان والسادة والفرسان عدد كبير ، حتى كان زفافاً معدوم النظير فى تاريخ العرب والعجم ، وجميعهم يأكلون ويشربون مما أعده عنترة ، فى سعة وبسطة .

والعجب فيما منحه عنترة من الهدايا .

فهذه هدية بسطام بن قيس ، وكانت مائتى جواد كاملة العدة ، وألفى ناقة ، ومثلها من الجمال ، ومائتى جارية ، وعشرين نافجة من المسك الأذفر ، ومائة عقد من الذهب والياقوت والجوهر ، ومائة طبلة من العنبر ، ومائتى ثوب من الديباج .

وهذه هدية معديكرب الزبيدى ؛ وكانت خمسمائة فرس كاملة العدد ، وألفى ناقة وجمل ، ومائة ثوب من الحرير ، وعشرة عقود من خالص الجوهر ، وعشرين طبلة من العنبر ، ومثلها من المسك الأذفر ، ومائتى عبد وجارية .

وهذه هدايا حجار بن عامر الكندى ، وحصن المازنى ، ومشاجع ابن أسيد من بنى خولان ، وعباد سيد بنى القيان ، ونعمة بن الأشتر ؛ وكل منها لا يقل قيمة وعدداً عن غيره من الهدايا .

وهذه هدايا من بقية الفرسان كل على قدر ما تيسر له .

قبل عنترة الهدايا شاكراً ، ثم التفت إلى الفارس الغسانى قائلا :

كل ما جاء من النوق والجمال فهو هدية منى إليك، وأما الثياب والطيب والعقود فهى لابنة عمى عبلة، وأما العبيد فإنهم فرسانى وجنودى .

وبعد أن قدمت الهدايا ، طلب المدعوون أن يبدأ الزفاف حتى يتم فى هذا الصفو الكامل ، وبسمة الزمن المشرقة ، فشكرهم قيس وقال :

لا عدمنا سعيكم المشكور ، ولا حرمنا بركم الموفور ، ولا عجب ، فأنتم سادة العرب، الذين يقدرون ذوى الشجاعة والأدب ، وقد نال عنترة منهما ما لم ينله أحد من العجم والعرب، فهو جدير بكل تقدير وحفاوة ، ونحن – بنى عبس – نعترف له بفضله ، ونعلن أنه حصننا الذى نلوذ به عند الشدة .

وأحس عنترة أن الربيع وبنى زياد تضطرم فى نفوسهم نار الحسد والغيرة فقال :

يا معشر العرب، أشهدكم على نفسى ، أننى فداء لأهلى وقومى ، ما امتد بى أجلى ، ولست بمنكر عليهم ما يريدونه بى ، فإن رأوا إتمام الزفاف قبلت ، وإن أبوه أو أغفلوه صبرت، فهم لحمى ودمى ، وبأيديهم أمرى ، ولهم بعد ذلك ما يشاءون .

وما فرغ من قوله هذا حتى سمع أصواتاً تدوى فى الفضاء من بنى عبس معلنة :

لا جدال فى الزفاف ، ولا بد من إتمامه اليوم .

رأس قيس جمعاً من أهل الرأى والمشورة وقال لهم :

أخشى أن يصيب عنترة سوء من أعدائه وحاسديه ، ليلة زفافه ، وأريد رأياً يحفظه ويحميه .

وكان المعروف عند العرب أن يركب الزوج بعيراً ، بحيث يكون على مرأى ممن حوله ، قريبهم وبعيدهم ؛ فقالوا :

لا سبيل إلى حمايته إلا إذا زف من غير أن يركب بعيراً، وأن تنذر كل من يتعرض له بسوء، بالقتل والصلب ، وأن تجعل له حراساً يحيطون به ؛ فقال :

ذلك خير ما نفعله .

وأصدر بذلك أمره، وأعلنه بين القبائل والأحياء ، وجموع الوافدين .

١٢

فزع عمارة إذ رأى أن الزفاف لا مرد له ، وأن عنترة سيحظى بعبلة ، وأن أمله فى الحصول عليها قد انقطع حبله، ففكر فى أمر يدبره لاغتيال عنترة ، حتى تكون عبلة له من بعده ، فاختار عشرة من أشداء عبيده ، وقال لهم :

تأخذون قسيكم ، وترقبون خروجه فى زحمة الناس ، ثم ترسلون إليه سهامكم ، فإذا ضربتموه دفنتم قسيكم واختفيتم فى الجموع الحاشدة ، منكرين هذه الفعلة على فاعلها كما ينكر الناس ، وبذلك يضيع دمه ، ولا يعرف أحد من قتله ، ولكم ما تشاءون عندى من أموال ، فقالوا :

سنفرق بينه وبين عبلة بقتله .

وما كادوا يذهبون إلى منازلهم حتى سمعوا منادياً ينادى :

أمر قيس أن يزف عنترة راجلا بين السادات والأمراء ، وستنتشر العيون فى كل مكان ، وهو ينذر كل من يتصدى لعنترة بمكروه أن يقتله ويصلبه ؛ فسقط فى يد عمارة وضاع عليه تدبيره ، وذهب إلى أخيه الربيع بن زياد يشكو حاله ، ويقول :

لقد جبتَ البلاد شرقاً وغرباً ، فهلا تدلنى على سم أضعه فى طعام عنترة ، ليقضى عليه وأستريح منه ، حتى تخلص لى عبلة ؟ !

فقال الربيع :

عندى شيء إذا أكله امرؤ لا يقتله ، ولكنه يفقده قوته ، ويحيل لونه ، ويصبح لضعفه مبغضاً لكل امرأة .

ففرح عمارة ، وسأله أن يعده ، حتى يضعه فى طعام عنترة ؛ فأعده وأعطاه إياه ، ووصاه أن ينفذه خفية ، حتى لا يصيبه قيس بن زهير بسوء .

وكان لعمارة أمَة تدعى كحلة ، هى أقرب ما تكون شكلا بعبلة ، وكان عمارة يتعزى عن عبلة بالنظر إليها ، والتحدث معها ، وكان لهذا يعتز بها ولا يجعلها تخرج من منزله إلى المرعى ، وكانت هى تحب عبداً من بنى قراد ، كما كان هو يحبها حبًّا جمًّا ؛ فأحضرها عمارة لديه ، وأفضى إليها بأمره ، وناولها الدواء الذى أعده لتضعه فى طعام عنترة ، قبل أن يزف إلى عبلة ، وحذرها أن يعلم أحد بأمرها ، حتى لا تعرض نفسها للقتل ، وتعرض بنى زياد للعار والفضيحة ، فقالت :

طب نفساً ، فسأنفذ ما تريد على غير علم من أحد ؛ وليكون بعيداً عن الشبهة ، فقد ذهب هو وبنو زياد إلى حفلة الزفاف ، مبدياً ما لا يخفيه فى نفسه من فرح وسرور .

كانت كحلة أمة عمارة تبغضه ، وتنقم منه حجزها فى منزله ، لأن ذلك لا يمكنها من لقاء حبيبها نعيم ، فذهبت إلى خميسة جارية عبلة ، وحدثتها بما أسر إليها عمارة ، وناولتها الدواء لتضعه فى طعام عمارة ، حتى يبغضها ، فتخلص إلى حبيبها نعيم ، وتشبع بالتردد إليه هناءتها وعواطفها ، وتولت خميسة خدمة عمارة وتجهيز طعامه ، فسألها عن كحلة أمته فقالت :

لقد آثرت هى أن تتولى خدمة عنترة وإطعامه ؛ ففرح عمارة وأيقن أن سهم تدبيره قد نفذ إلى قلب عنترة ، وأنه لن يهنأ بعبلة ، ولا يمضى زمن حتى يكون قد فرّق بينها وبينه .

دست خميسة الدواء فى طعام شهى ، ووضعته أمام عمارة ليطعمه ؛ ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله .

* * *

بدت عبلة فى أبهى حللها ، وتألقت أضواء الدرر من تاجها الكسروى فوق رأسها ، وشع الجمال الساحر من قسمات وجهها ، وفاتن قوامها ، وجلست على عرش الزفاف جلسة حبست عليها العيون ، وقيدت الخواطر ، فشخصت الأبصار ، وتعلقت الأنفاس ، وذهل كل عمن بجانبه وعبق الجو بعبيرها ، وارتفعت أصوات المغنيات من حولها ، ونطقت المزاهر والدفوف إعجاباً بها ، وكانت ليلتها هذه درة الليالى فى تاج الزمن ؛ واستمرت الأفراح ، حتى ظهر الفجر ولاح ، ثم انصرف الناس ، وتم زواج عنترة بعبلة .

وكانت زبيبة طاهرة القلب ، بريئة الغاية ، أفسد عليها همها المطرد على عنترة قوة ذاكرتها ، فدخلت عليه قائلة :

يا بنى ؛ قبل أن تأوى إلى فراش زوجك ، استمع لحديث يقيك شر العار ، وخزى الفضيحة ، فقال : نعم يا أماه .

فقالت زبيبة :

إن عبلة هذه أختك من الرضاعة ، فقد أرضعتها معك غير مرة ، وقد أخفيت عنك هذا الخبر ، لأنى ما كنت أظن أن يتم لك فيها أمر .

فبدت على وجهه أمارات الغضب وقال :

حينئذ يبقى نبؤك هذا فى طى الكتمان ، وتبقى عبلة عندى كأختى .

وخلا عنترة بعبلة وسألها :

أما كنت تعرفين شيئاً مما سمعت من والدتى ؟

فقالت : ذلك قول جديد ، ما جال بخاطر إنسان قبل أن نسمعه ، فقال :

وإنى لا أكاد أصدقه ، لأنى لا أحس فى نفسى فيما شرع له الزواج هيبة ولا نفوراً ، ولعل فى الأمر شيئاً لا نعلمه ، ولا ضير علينا أن نسلم أنفسنا إلى النوم حتى نتبينه ، وتلقف كلا منهما مضجعه ، وما طاف عليهما طائف من النوم .

ولما جاء الصباح وجاءت شريحة أم عبلة تهنئها ، رأتها قلقة واجمة ، فسألتها عما بها ، فأنبأتها نبأ زبيبة ، فقالت لعنترة :

كيف صدقت أمك ، وأنا أم عبلة ومرضعتها ، ولا أعلم لها أخاً إلا عمراً ؟ ! وأحضرت فى الحال زبيبة وقالت :

متى أرضعتِ عبلة ابنتى ؟

فقالت : إنى لا أعلم من أمر إرضاعها شيئاً ، ولكن سمية زوج شداد هى التى أوحت إلىّ به .

فالتفتت شريحة إلى سمية قائلة :

وما هذا الخبر الذى انفلت من لسانك يا سمية ؟

فقالت :

لقد أوحى إلىّ به عمارة بن زياد ، لأبلغه إلى عنترة ، ومنحنى من أجله عقداً قيمته ألف دينار ، وما كان لى أن أضيع عقداً من أجل خبر لايلبث أن يظهر كذبه ، ويمحى أثره ، وتكون نتيجته غنماً لى ولعنترة ، وخسارة على عمارة .

فقالت : ولكنك عكرت على الزوجين صفو ليلتهما ؟

فقالت : إنها بقية ليلة ، لقاء عقد ثمين ربحته، وعند عنترة اليوم جميعه ، يعوض فيه ليلته .

عند ذلك فرح عنترة ، وأذن للنساء بالانصراف ، ثم استقبل وفود المهنئين، ودامت الأفراح قائمة سبع ليال ، ثم انصرف كل إلى داره ، محوطاً بالشكر وجميل التقدير .

أما عمارة فقد انقلب إلى داره ، وفى قلبه من الحسرة ما ألهب جوانحه وبعث فى صدره غيظاً كاد يقتله ، لولا أن لديه أملا فى إفساد الأمر على عنترة ، بما دبر من كذب ومكيدة على يد سمية .

ولما كان فى داره ، وأراد أن يسرى عن نفسه ويسامر كحلة أمته لم يجد لها فى نفسه ما كان يجده من قبل من ميل ورغبة ، بل أحس نفوراً وبغضة ، فعجب من أمره وقال :

لعلك أخطأت فأطعمتنى الدواء الذى أمرتك أن تطعميه عنترة .

فقالت فى عجب وغضب :

لعلك أنت رأيت جمال عبلة ، فقبح فى نظرك كل جمال ، لقد أعطيت خميسة أمة عبلة الدواء وأمرتها أن تطعمه عنترة ، ولا أدرى بعد ذلك ما فعلت .

فقال وقد ساوره الوهم ، وظن أن خميسة أطعمته إياه فيما قدمت إليه من طعام :

لقد أردتُ السوء بعنترة ، دون ذنب اقترفه ، إلا ما كان لدىّ من هوى ، لا يطغى إلا على من ضل وغوى ، وأخشى أن يكون قد حاق بى ما فعلته، فخسرت عبلة وخسرت حياتى الهناءة والعافية ، فلتشغلنى نفسى الآن ، فقد برمت بالحياة ، وبرمت بما فيها من متعة ونعيم .

ففرحت كحلة فى قرارة نفسها ، ورجت أن تكون أيام خروجها إلى المرعى والتقائها بحبيبها نعيم قد حانت ، ولكنها أظهرت رياءً أسفها على ما قال عمارة ، وقالت له : لا تخش ضرًا فالله حافظك .

١٣

وبينما بنو عبس فى عيشة هادئة راضية ، لا يزعجهم فيها خصام أو قتال، إذ رأوا على بعد من منازلهم غباراً يصّاعد فى الجو ، وينبئ عن

خيل مقبلة ، فخشى عنترة أن تكون لأعداء قادمين لقتال ، فركب جواده ، وخرج إليهم هو وعروة بن الورد ، والفارس الغسانى ، فى ثلاثة آلاف فارس عبسى ، والتقى بالقادمين عند مراعيهم ، فألفاهم أبطالا من اليمن تحت قيادة العقاب بن سمعمع ، وكان من الفرسان البارزين ، وقد سمعوا عن عنترة وشجاعته ، فقال عنترة له :

من أنت أيها الفارس؟ وكيف جرؤت على بنى عبس فأغرت عليهم ، ملقياً بنفسك وصحبك فى التهلكة ، فأجابه العقاب بن سمعمع :

ومن تكون أنت ، حتى تستطيل علينا بالقول دون أن تخشى ضرب السيوف و وخز السهام ؟ !

فقال عنترة :

أنا عنترة ، الذى يسقيك وصحبك كأس الموت مرة واحدة .

فقال العقاب :

سيريك القتال أينا يسقى صاحبه ، فما جئت إليك إلا بريب المنون ، حتى أنقذ العرب من شرك .

فقال عنترة : وكيف تنقذ العرب وأنت لا تستطيع أن تنقذ نفسك ؟ خذ حذرك فإنى مبارزك .

وجال به عنترة جولات أنهكت قوته ، وأفنت جلده ، وانتهت بقطع رأسه ، أما عروة والفارس الغسانى فقد هجما على جماعته ، فقتلوا كثيراً منهم

وفرت بقيتهم هاربة فزعة ، ثم رجع عنترة وصحبه ، ومعهم ما غنموا من أموال وسلاح ، ورجع إلى العبسيين اطمئنانهم وسكونهم .

ذكر عنترة الفارس الغسانى ، وما كان قد وعده إياه من معونته ، فى زواجه بمسيكة خطيبته ، فذهب إلى منزله ذات ليلة ، ليسمر معه ، ويخبره أنه قد عزم على أن يرحل معه لتنفيذ وعده ، فلما دنا من داره ، سمعه يناجى نفسه ، ويخاطب أرض الشام التى فيها محبوبته ، ويحمل النسيم طيب سلامه إليها ، ويذكر ما كان من شأنه فى العراق ، وما كان له من أمل فى إحضار مهر خطيبته منها ؛ ثم ما بدا له من أريحية عنترة ، وكريم خلقه وطيب شمائله ، وما وجد فيه من شجاعة وإقدام وعلم بفنون الحرب وضروب الفروسية ؛ وما له من فضل على الاحتفاظ لعبس بمقامها بين القبائل .

فتأثر عنترة ورثى لحاله ، وعرف أن شوقه إلى من يحبها قد برح به ، وأنه فى حاجة إلى من يجمع بها شمله ؛ ثم استأذن ودخل عليه وسأله عن حاله فقال :

خير وعافية ، ما دمت فى رعايتك .

فقال عنترة :

لقد ظلمتك بإبطائى فى تنفيذ ما وعدتك إياه ، من إتمام زواجك بمسيكة ، وقد جئتك الساعة ، لأعلمك عزمى على الرحيل معك إلى أبيهاغداً .

فأشفق الفارس عليه ، وأحب أن يرجئ أمر الرحيل حتى يحظى عنترة بعبلة أياماً .

فقال عنترة :

لن يهدأ لى بال ، ولن تطيب لى حياة ، حتى أحقق رغبة الإخوان ، وأنيلهم ما يبغون .

وفى الصباح وصى عنترة بأهله الملك قيساً ، وسار هو والفارس الغسانى ، وشيبوب أخوه ، وعروة بن الورد ، والهطال ابن أخته فى ثلاثين فارساً ، بعد أن وصاه الملك قيس أن يعود سريعاً ، خشية أن يحرض سنان ابن حارثة النعمان ويغريه بقتال بنى عبس ، فقال عنترة :

سأعود إليكم قبل أن تجدوا ريحاً للنعمان وجيشه .

وسلك بهم شيبوب أرض حاجر وضهير و باتوا فيها ليلة ، ثم جعلوا يقطعون الفيافى والقفار حتى أشرفوا على أرض تيماء ، وقد عولوا على أن يحطوا رحالهم فيها ، ليأخذوا جمامهم وراحتهم ، فعجبوا أن رأوها قد فرشت بالخيام ، وغصت بالعبيد والفرسان ، وقال الفارس الغسانى :

ما عهدت هذا المكان ينزل فيه إلا الضعفاء والصعاليك من بنى غسان ، ولكنى أرى قوماً تبدو عليهم مظاهر القوة والغنى وأرى أن تلبثوا فى مكانكم حتى آتيكم بنبأ هؤلاء القوم النازلين .

فقال شيبوب :

دع عنك هذا الأمر فأنا به زعيم .

فقال الفارس :

إنى أكثر خبرة ومعرفة بهذه الأمكنة ، وأستطيع أن أعرف كل شيء فى يسر وسهولة .

ثم ركب جواده وسار ليأتيهم بنبأ هؤلاء القوم .

كان هذا الجيش النازل بأرض تيماء من أجل مسيكة خطيبة الفارس الغسانى ، وابنة عمه ؛ وذلك أنه بعد مسيره إلى أرض العراق لإحضار صداقها ، كان قد ذاع خبر جمالها ، ووفد إليها الخاطبون من مشارق الأرض ومغاربها ، ووالدها لا يستجيب لخطبة أحد منهم قائلا :

ليست ابنتى ملكاً لى الآن ، لأنى استجبت لخطبة ابن عمها ، وقد ذهب إلى العراق لإحضار صداقها الذى فرضته لها ، فلا أنقض عهداً ، ولا أخفر ذمة ، ولكن علىّ أن أرتقب حضوره ، وبعد ذلك يكون ما يكون .

وكان للحارث الوهاب ملك الشام ونائب قيصر الروم ولد يسمى غديراً ، وكان على جانب عظيم من جمال الخلقة ، وصفاء الفكر ، وذكاء القلب ؛ فلما بلغه ما عليه مسيكة من روعة الحسن ، شغف بها حبًّا ، وأصر على أن يتزوجها ، وأخبر أباه بذلك ، فغضب أبوه وقال :

كيف تكون من ملوك الشام وتتزوج من بنات حوران ، تاركاً بنات السادات من أهلك وعشيرتك ؟ !

فخرج غدير من حضرة والده غضبان أسفاً ، وذهب إلى ندمائه ، واصطفى منهم من يعلم فيه كتمان سره ، وأفضى إليه بجلية أمره ، ليشير عليه بما يراه ، فقال له :

لن تستطيع الوصول إليها إلا بوسيلة واحدة .

فقال غدير : وما هى ؟

فقال : أن تبعث إلى أبيها كتاباً تخطبها منه ، وتغريه بالمال الوفير ، فإنه فتنة الدنيا ، وسحر الحياة ، وتشير عليه فى كتابك ، أن يرحل بابنته إلى أرض العراق، لتلحق به فى رفقائك وأصحابك ، وهناك تتزوج بها فى ضيافة النعمان وكفالته ، ثم تعلمه أن والدك لن يستطيع صبراً على فقدك ، وأنه سيرسل إليك من يسترضيك ، لتعيش أنت وزوجك فى وارف من ظلال رحمته ونعمته .

وكلف غدير هذا أحد أصحابه المعروفين باللباقة وحصافة الرأى ، وأمره أن يذهب بكتابه إلى أبى مسيكة ، ويقفه على ما كان بينه وبين أبيه .

فلما دخل الحاجب على مجير أبى مسيكة قال :

إذا كتب الله لإنسان سعادته ، يسر له سبلها ، وفتحت فى وجهه أبوابها ، وإنى أراك مقبلا على حياة كلها خير وبركة .

فقال مجير :

وكيف ذلك ؟ !

فناوله كتاب غدير ، وبعد أن قرأه أبلغه الأمر فى سحر من بيانه ، وزخرف من قوله ، فأجابه مجير قائلا :

بلغ صاحبك أن رضاى بهذا ظلم مبين ، فإنى إن قبلتُ فقد ظلمتُه ووالده ، بتمكينه من عقوقه، والخروج على إرادته، فى غير إثم ولا معصية اقترفهما ؛ وظلمتُ ابن أخى بنقض ما عاهدته عليه ؛ وظلمت نفسى بأنى لا أرقب فى الناس إلاًّ ولا ذمة ؛ ثم أخبره بما اتفق عليه هو وابن أخيه فى شأن ابنته مسيكة .

ركب غدير فى خمسمائة فارس بقيادة مساعد بن معين ، ونزل هو فى أرض الفتاك ؛ أما مساعد هذا فقد ذهب هو وجنوده إلى مجير أبى مسيكة مغيراً ، وبعد قتال لم يطل أمده ، أخذه هو وابنته مسيكة وسائر أهله أسرى ، وانقلب بهم وبجنوده إلى غدير حيث خلفه وتركه .

وتلقاهم غدير بالفرح العظيم، وجعل يزيل ما بمسيكة من حزن وألم ، ويمنيها أنها ستكون هى وأبوها وأهلها فى أرغد عيش وأهنأ حال، ثم ارتحل بهم إلى أرض تيماء فنزلوا على غدير فى سبيلهم ، ليبيتوا فيه ليلة ، وقد جعل غدير يعد مجيراً ويمنيه ، ويعتب عليه إباءه زواج ابنته ، حتى رضى مجير أن يزوجه إياها ، ووعده أن يتم هذا الزواج .

وبينما هم نازلون جاءهم عنترة وقام الفارس الغسانى بكشف أحوالهم ، وتبين أمرهم، فلما دنا منهم انتحى ناحية وجلس ، فجاءه جماعة منهم

يتعرفونه ، فأخبرهم أنه الفارس الذى ذهب إلى العراق لإحضار صداق مسيكة ، ولكن الزمن أصابنى بما خيب رجائى ، وأفقدنى أملى ، ثم سألهم :

من هم ؟ ولأى أمر نزولهم فى هذا المكان ؟ وكيف حال مسيكة وأبيها ؟

فقالوا : وقعت هى وأبوها وأهلها فى يد غدير .

وقصوا عليه قصتهم ؛ ثم أشاروا عليه أن يعود من حيث أتى ، ولا يجعل لغدير سبيلا إلى معرفته ، حتى لا يقتله .

فقال الفارس الغسانى :

لى عندكم أمر أرجو أن تقوموا به .

فقالوا : وما ذاك ؟

فقال : أن تذهبوا إليه وتتحدثوا معه فى أمر مسيكة وإخلاء سبيلها ، فإن أجاب وإلا فقد حقت عليه كلمة القتل والهوان ؛ فغضبوا لقوله وقالوا :

كيف تهدد ابن الحارث الوهاب ، وتعرض نفسك للفناء ؟ ! ارجع إلى رشدك ، واغتنم حياتك ، وارجع من حيث أتيت سالماً .

فقال : لا خوف علىّ من لقاء الجيوش وإن كانت ألوفاً مؤلفة ؛ فأنا اليوم عبسى ، ولست غسانياً ، وفى صحبة أسد هصور ، سترون من قتاله ما لم يخطر لكم على بال .

ثم سل سيفه وأعمله فيهم ، فقتل منهم ثلاثة ، وشرد بقيتهم ؛ وبلغ ذلك غديراً فأمر رجاله بالحملة عليه ، فخفوا مسرعين إليه ، وأحاطوا به من كل جانب ، وهو بينهم كالأسد ، يعجل الآجال ، ويقطع حبال الآمال .

وأحس عنترة أن الفارس قد أحاط به الأعداء ، فأسرع برجاله إليه ، ودبوا بينهم دبيب الفناء ، فقتل غدير وكثير من البارزين من فرسانه ، وفر بقيتهم مندفعين فى غمار الصحراء خوفاً ورعباً ، وخلص مجيراً وبنته وأهله من سجن الأسر والعبودية .

ثم جلسوا يتحدثون ، وقص الفارس على مجير ما أصابه فى رحلته ، رافعاً ذكر عنترة ، مشيداً بفضله وشجاعته وكريم سجيته ، ثم طلب إليه أن يصحبهم إلى ديار بنى عبس ، لينعم بالعيش الرضى ، والحياة الآمنة ، فقال :

لا مانع لدى ، فلست قادراً على أن أرجع إلى ديارى ، مخافة أن ينسب إلىّ الحارث الوهاب قتل ابنه ، فيصيبنى بلاؤه .

ففرح بذلك الفارس الغسانى ، كما فرح عنترة الذى جعل ماله ملكاً لهذا الفارس يتصرف فيه كما يشاء .

وقد رأى عنترة من مجير والد مسيكة أدباً جماً ، وعقلا رشيداً ، ورأياً صائباً ، وخلقاً كريماً ، فأحبه وائتلف به .

وما زالوا سائرين حتى أشرفوا على ديار بنى عبس فوجدوها خراباً يباباً ، لا تسمع فيها همساً ، ولا ترى فيها أحداً ، فابتأس عنترة وقال لعروة : ما هذا الذى نرى ؟! أنحن فى منام أم فى يقظة ؟ !

وبينما هو ساه فى غمرة من حيرته ، إذ أقبل عليه عبدان من عبيد قيس بن زهير ، فقبلا يديه ، وسألهم عما رأى من تغير الحال فى الأحياء والعشائر ، فقالوا :

استعدى حصن بن حذيفة النعمان على بنى عبس مستجيراً به مستنصراً ، وكان الأسود قد أوغر صدر أخيه ، وجعله يبغضهم بغضاً شديداً ، ويتمنى أن يبيدهم ، ويمحو آثارهم ، فأقسم أن يذهب إليهم بعد سبعة أيام ، فى جيش لم تر الدنيا مثله عدداً وعدة ، فبعثت المتجردة من أخبر قيساً أخاها بما عزم عليه النعمان ، فجمع أهل الرأى عنده ، وقلبوا وجوه الرأى فى نبأ المتجردة ، ثم أجمعوا أمرهم على ما أشار به الربيع ابن زياد ، من رحيلهم إلى بنى حريقة والإقامة بجوارهم ، فى جبال شهلان ، التى لن يستطيع غزوها إنسان ، ولأن ملكهم يتمنى حاجة يقضيها لأبناء زهير ، الذى لا يزال يذكر له أن خلصه من أسر كان قد حاق به .

ثم نزحوا لساعتهم إلى تلك الجبال ، فاستقبلهم ملك بنى حريقة استقبالا كريماً، وقال لهم :

هذه أرضنا حل لكم ، فانزلوا حيث يطيب لكم الاختيار .

وهناك قص عليه قيس قصته ، فقال ملك بنى حريقة .

لقد بعث إلينا النعمان يستعدينا عليكم ، ويطلب أن نمده بالرجال والمال ، ولكنا أبينا أن نستجيب له ، غير خائفين غضبته ولا غضبة غيره ، فلنا من حصون الطبيعة ، وما منحناه من الأيد والقوة ، وكثرة العدد والعدة ، ما يكف عنا الأذى مهما يكن مصدره ، فطيبوا بالمقام فى أرضنا نفساً ، فنحن لكم جنود مجندة ، ولكم عندنا ما تحتاجون ، وهذا قليل بجانب فضل أبيك زهير علىّ ، فلن أنسى معروفه ما حييت . وضرب العبسيون خيامهم ، وطاب مقامهم ، وإن كانت قلوبهم تتحرق على غيبة عنترة .

وهال بنى حريقة ما رأوه من الغنى الواسع ، والنعمة السابغة ، فى خيام بنى عبس ، ونوقهم العصفورية ، وأنعامهم وملابسهم ، فحسدوهم على ما أوتوا من فضل ونعمة ، وتحركت فى صدورهم نزوة الطمع فى أموالهم ، وزاد هذه النزوة حدة وقوة فارسهم الأخيل بن عمرو ، فجعلوا يثيرون الشر من حين إلى حين ، بقسوتهم على عبيدهم وأطفالهم ، والعبسيون صابرون ، قد اعتصموا بالحلم ، واستمسكوا باللين والحسنى ، حتى ينشق ليل محنتهم عن ضوء الصباح .

١٤

ما زال بنو حريقة يتحرشون بضيوفهم العبسيين وهم صابرون ، حتى جاء رسول النعمان إلى ملكهم فقال له :

إن الملك النعمان يخبرك أن بنى عبس عاثوا فى الأرض فساداً ، وبغوا على بنى بدر ، فقتلوا رجالهم ، وأيتموا أولادهم ، وعتوا فيهم وفى غيرهم من القبائل عتوًّا كبيراً ، وقد استفحل خطرهم حتى تمردوا علىّ ، ونالونى بكيدهم وشرهم ، وقد جردت لهم جيشاً ، أمدته سبعون قبيلة برجالها وخيلها ، لسحقهم ونسخ ظلمهم ، وقد بلغنى أنهم يقيمون فى أرضك ، ويلوذون بجوارك ، فإما طردتهم ، وإما حاربتك وإياهم ، وأبدتكم أجمعين .

جمع ملك بنى حريقة سادات قومه ، وفيهم الأخيل بن عمرو ، وأنبأهم نبأ النعمان ، فقال الأخيل :

لقد أمنت أناساً لا يستحقون عطفاً ولا رحمة ، لأنهم لئام يكفرون بالنعمة ، وقد كنت عازماً على نهب أموالهم ، ما داموا كما يقول النعمان قوماً جبارين ، لا عهد لهم ولا وفاء .

فأحضر ملك بنى حريقة رسول النعمان وقال له :

بلغ مليكك : أن دع عنك أمر بنى عبس ، فسآمرهم بالرحيل من

أرضنا ، ثم أسلط عليهم رجالى ، فيدحضون جبروتهم وطغيانهم ، ويسوقونهم إليك أسرى أذلة ؛ ثم غمره بإحسانه ، وسرحه إلى مليكه ، وكان قد نقض ما عاهد عليه قيس بن زهير ، مخافة الأخيل وعشيرته أن تشق عصا الطاعة ، فتسرى عدواها إلى بقية العشائر ، فيصبح ولا معصم له من جند يعصمه ، إذا ما غزاه النعمان بجيشه .

كل ذلك جرى ليلا ، على غير علم به ، من قيس بن زهير وقومه .

وفى صبيحة تلك الليلة قدم عنترة ومن معه من الأعوان ، ومغانم بنى غسان ، فوجد الديار خالية ، وما لبث أن جاءه العبدان ، وأخبراه برحيل القوم إلى جبال شهلان ، فقال :

لو أدركتهم قبل أن يرحلوا ما مكنتهم من الرحيل ، وللبثت فيهم أذود بسيفى هذا عنهم كل مغير ، وإن بلغ من القوة والكثرة مبلغاً لا ينال .

ثم سار إلى قيس حتى كان عنده بأرض بنى حريقة ، فنسى بنو عبس بقدومه كل هم ، وأحسوا قوة الجانب ، وعزة الجاه ، وعتب عنترة على قيس رحيله ، فقال :

لقد أرغمنا على الرحيل خشية النعمان وجنوده ، ولو علمنا نبأ قدومك ما رحلنا .

وقال الربيع بن زياد :

لم يكن رحيلنا إلا خوفاً على النساء والعيال أن ينالهم الأعداء بسوء ، ولا طاقة لنا بلقائهم ، ما دمت غائباً عنا ، فأنت حامينا ومعصمنا .

وما لبث فيهم عنترة غير قليل حتى شكوا إليه ما أصابهم من بنى حريقة من ضيم وذلة ، واضطهاد وقسوة ، وهم صابرون ، لا يبدون ولا يعيدون ، ثم قالوا : فكم أهينت عبيدنا وأولادنا ، وطردت عن المناهل أنعامنا ، ونحن نكظم غيظنا ، ولا نعترض على ضيم ينزل بنا ! !

فتألم عنترة وقال : حذار بعد الآن أن تناموا على ضيم أو أذى ، وزاحموا من الصباح بإبلكم ، وقفوا فى وجوه بنى حريقة وقفة السادة ، فسأرغمهم بسيفى هذا على احترامكم وطاعتكم ؛ فاشتد ساعد بنى عبس ، وقويت نفوسهم ، وعزموا على أن يركنوا إلى القوة يدفعون بها إذا بدرت من بنى حريقة بادرة اضطهاد .

أرسل الأخيل بن عمرو ، إلى قيس بن زهير ، رسولا يخبره أمر الملك أن يرحل من أرضه ، خشية أن تصاب فيها بأذى لا يستطيع دفعه ، أو يعكر صفو المودة بينكما .

فقال قيس :

أقرئ سيدك السلام ، وبلغه أننا راحلون غداً .

ثم أحضر إليه الربيع ، ونفض إليه ما قال ملك بنى حريقة ،

فقال الربيع : يبدو لى أنه ما طلب الرحيل إلا ليتخذه وسيلة إلى قتال أراده عليه النعمان ، ومن الخير لنا أن نرحل إلى بلاد اليمن ، قبل أن ينشب القتال وتدور علينا دائرته .

فقال قيس : ذلك رأى حسن ، ولكنى أخاف ألا يقبله عنترة ، فيثيرها حرباً نجنى ويلاتها .

فقال الربيع : لا تخبره أمر الملك بالرحيل ، وقل له : إن هذه الأرض ضاقت بنا ، وما اخترنا النزول فيها إلا لنرقب حضورك ، وما دمت قد حضرت ، فمن الرأى أن نرحل إلى بلاد اليمن .

وما جاء المساء حتى كان رأى الربيع بالرحيل إلى بلاد اليمن قد ذاع وبلغ عنترة ، فغاظه ذلك ، وأحضر عروة بن الورد والفارس الغسانى وقص قصة الرحيل التى أشار بها الربيع بن زياد ، فقالا :

أشر أنت علينا بما تريد ، ونحن لك خير عون .

وبينما هم جالسون يتحدثون إذ دخل عليهم رجل من عامة بنى عبس وعلى وجهه آثار الحزن والألم بادية ، فقال لعنترة :

جئت إليك لتدفع عنى ظلم بنى حريقة .

فقال عنترة : قد دفعته ، فهات ما عندك .

فقال : لى ابنة جميلة ، أخرج بها إلى المرعى ، لتقضى لى بعض شئونى ، فرآها غلام من بنى حريقة ، دأب على تتبع البنات ومضايقتهن ، يقال

له غادر بن جفال ، فجعل يحتك بها فى طريقها ، ويحاول أن ينال منها ، فحبستها فى منزلى ، ومنعتها أن تصحبنى أو تخرج إلى المرعى ، فجاءنى متوعداً وقال : كيف تمنعها من الخروج إلى المرعى ، وقد تعلق هواى بها ؟ !

فقلت له : إن كان لا بد منها فتزوجها ، حتى لا تفضحنى فى عرضى وأهلى .

فقال غادر : كيف تحبسنى بالزواج على ابنتك وأنا طليق الهوى ، أتبع من أشاء من البنات والنساء ؟ ! إذا لم تأمرها بالخروج لأستمتع برؤيتها والتحدث إليها سقيتك كأس الردى .

وقد جئتك يا عنترة شاكياً مستصرخاً .

فقال عنترة : اذهب إلى منزلك ، ونم مطمئناً فأنا حارسك .

ثم قال الفارس الغسانى : أرجو أن تكل إلىّ حماية هذا الرجل وأهله ، فقال : على أن تقتل الغلام غادر بن جفال ، وتلقى جثته فى الطريق ، حتى إذا رآه قومه خرجوا على إثرنا ونحن مرتحلون ليثأروا له ، فإنى أحب أن يخرجوا إلينا ، ليلقوا منى جزاءهم ، بما صبوه على قومى من ضروب الإهانة ، مدة إقامتهم فى أرضهم .

ولما جاء الليل كمن الفارس الغسانى قريباً من خيمة ذلك الشيخ الشاكى ، وما لبث غير قليل حتى جاء غادر ونادى :

أخرج ابنتك إلىّ الآن ، لتنعم بالمال الوفير .

ولم يكد يستقر به المكان جالساً ، حتى قبض عليه الفارس الغسانى ، ورفعه بيديه إلى السماء ، ثم ضرب به الأرض ضربة كانت القاضية ، ثم ألقاه وذهب إلى خيمته فنام حتى الصباح .

ولما أشرقت الشمس جاء شيبوب ، وأمره أن يركب ويستعد للقتال وهم راحلون ، لأن بنى حريقة يريدون أن ينهبوا أموالنا ، وقد بعث أخى عنترة إلى عروة بن الورد بذلك .

وسار قيس وقومه ومجير والد مسيكة وأهله معهم ، وقد جعلوا النساء والأموال فى المقدمة ، ومن خلفهن الفرسان والرجال ، وقد وصى عنترة الفرسان ألا يأسروا أحداً من بنى حريقة ، ولكن من ظهروا عليه قتلوه ، وجعل للفارس الغسانى جميع ما يغنمه من بنى حريقة .

ولما بلغ الأخيل موت غادر ، وكان من أقربائه ، جند جيشاً وتبع به بنى عبس ، حتى أدركوهم فى الفلاة ، على مرأى من جبال شهلان ، وما رآهم العبسيون جادين فى إدراكهم ، حتى استعدوا للقائهم واشتبك الفريقان ، ووجدت سيوف بنى عبس ورماحها فى جسوم بنى حريقة غذاءها وريها ، ومال ميزان النهار ، وقد مات الأخيل ، وفر بقية جيشه هرباً ، تاركين ما كان معهم من مال ونعم .

وقال عنترة لقيس : لا ضير علينا أن نمكث فى هذا المكان ، حتى يدخل الفارس الغسانى بزوجه مسيكة ، فقد أخلص إلينا ، وصار

بمعونته لنا هذه المدة كأنه منا .

فقال قيس : دونك الأموال والأنعام ، فخذ منها لعروسه ما شئت .

وضربت الخيام ، وذبحت الذبائح ، وأقيمت الولائم ، وانتشرت حفلات الغناء والرقص ، واللهو واللعب ، وزفت مسيكة إلى بعلها فى خيمة جميلة أعدت لهما .

وفى الصباح استأنفوا المسير جادين ، لأن قيساً رغب فى مغادرة هذه الأرض على عجل ، قبل أن يلحقهم جيش النعمان فيزعج أمنهم ، ويحملهم من عناء الحرب ما هم عنه فى غنى .

١٥

وبعد أيام من مسيرهم كانوا بأرض تسمى ذات المناهل ، كثرت عيونها ، واتسعت غدرانها ، وبسقت أشجارها ، وسجعت طيورها ، وكثرت مراعيها ، فضربوا فيها خيامهم ، وقد أعجبت قيساً فقال :

نتخذ هذه الأرض وطناً لنا ، نحميه بسيوفنا .

وكانت هذه الأرض لبنى سعد ، وهم قوم كثر عددهم ، وخضعوا لسلطان أميرهم معاوية بن النزال ، ولما بلغه نزول بنى عبس بأرضه ، جمع ذوى الرأى من قومه وقال :

أرونى ماذا تنظرون ، فى أمر هؤلاء العبسيين ، الذين قاسموكم مراعيكم وخيرات بلادكم ، وقد علمت أنهم هاربون من النعمان ، وأخشى أن يكون مقتفياً بجيوشه آثارهم ، فيغير علينا وعليهم ، ونصلى نار حرب حامية بسببهم ، على أننى لا أدرى : أهم مقيمون ماكثون ، أم نازلون للراحة ثم هم بعدها راحلون ؟

فقال بعضهم : لا ينبغى أن نسكت عنهم ، ولكن نغير عليهم ليلا ، ونأخذ ما غنموه من القبائل ، بحد السيوف وأسنة الرماح ، فهو رزق سيق إلينا على أيديهم ، ثم نطردهم إلى حيث يذهبون .

وقال آخرون منهم :

لا ينبغى أن نعاملهم إلا بالتى هى أحسن ، فنكرم جوارهم ، ونحسن عشرتهم ، لأنهم غرباء ، تعاونت عليهم النوائب حتى أرغموا على فراق أوطانهم ، على ما عرفوا به من شجاعة وكريم خلق ، وخير الناس من نفّس عن أخيه كربة ، وكشف عنه غمة ، وأسدى إليه نعمة ، فاحمد الله أيها الأمير إذ جعل أكرم الناس فى حاجة إليك ، فقال :

ذلك خير سبيل ، ولكنى لا أعرف : أهم مقيمون أم راحلون ؟ فلا بد أن نكشف أحوالهم ، حتى نتقى شرهم .

وانفرط مجلس الرأى على هذا .

أحضر معاوية بن النزال عجوزاً ، معروفة بالفصاحة والمكر وسرعة

البديهة ، وهى التى ربته صغيراً ، فقال لها :

سأبعثك فى أمر هام ، ليس له إلا حكمتك وخبرتك ؛ ذلك أن تذهبى إلى بنى عبس متنكرة كأنك غريبة ، وتتحدثى إلى نسائهم فى أمر إقامتهم بأرضنا ، وهل هم مرتحلون عنها ، أو اتخذوها دار مقامة ، وأن تقفى على أحوالهم وأخبارهم وأغراضهم ، واحذرى أن يعرف أحد غرضك الذى بعثتك فيه .

فقالت : سآتيك بكل ما تحب أن تعرفه .

وكانت بين خيام بنى عبس ، فهالها ما رأت من مظاهر الغنى والنعيم ، ثم عنّ لها أن تقف على باب خيمة ، وتطلب من سيدتها شربة ماء ، تطفئ حرارة عطشها ، وكانت هذه الخيمة لسمية زوج شداد ابن قراد، وكانت العجوز عليها مسحة من الحزن والتوجع المتكلفين ، فلما رأتها سمية على حال من الأسى والألم ، رثت لها ، وأشفقت عليها ، وأدخلتها الخيمة ، عسى أن تخفف عنها ما أضناها وأحزنها بالحديث والعزاء .

وجعل الحديث يذهب بهما مذاهب شتّى ، حتى تناول قصة بنى عبس ، وتركهم أوطانهم ، ونزولهم بجبال شهلان ، وما فعلوه ببنى حريقة ، حتى حطوا رحالهم بذات المناهل أرض بنى سعد .

ثم دخلت عليهما عبلة تخطر فى ثيابها الحريرية الفاخرة ، ويضىء

جمالها جنبات الخيمة ، والعقود من اللآلئ والجواهر تتألق فى عنقها وكأنها قلائد من نجوم زاهرة ، فقالت العجوز :

سبحان من خلق فسوى ، وكلأ فأبدع ؟ !

فقالت عبلة :

نعمت صباحاً أيتها الوالدة .

فأجابت : ونعم صباحك أيتها الحسناء الفاتنة .

ثم التفتت عبلة إلى سمية سائلة عن هذه العجوز ، فقالت :

امرأة غريبة ، أعجبنى منطقها ، فأحببت أن أنعم بالجلوس معها حيناً .

فقالت عبلة للعجوز :

أتعرفين : من القوم الذين نزلنا بجوارهم ؛ ومن سيدهم ؟

فقالت العجوز :

إنى امرأة غريبة ، ولكنى أعرف أنهم بنو سعد ، وأن سيدهم معاوية ابن النزال ، وهم قوم أشداء شجعان ، لا يحصون عدّاً .

فقالت عبلة :

ولِمَ لَمْ يأت سيدهم إلى ملكنا قيس ينشد وده وعونه ؟ ! ألم يأته حديث قوتنا ، ومواقف حاميتنا عنترة ؟ ! إذا ذهبت إليه فانصحى له باسترضاء مليكنا ، وإلا فلن يلوم إلا نفسه .

فقالت العجوز :

العجوز تحدث زوجة مالك وعبلة ، وعنترة على باب الخباء

ومن أكون حتى ألتقى بسيدهم . وأنا عجوز غريبة رقيقة الحال ؟ !

ثم خرجت عبلة ، وذهبت إلى حيث شاءت .

فقالت العجوز لسمية :

من تكون هذه الفتاة الجميلة ؟ لعلها زوج الملك قيس أو ابنته .

فقالت سمية :

ليست هذه ولا تلك ، إنما هى عبلة بنت مالك بن قراد ، وزوج عنترة بن شداد ، حامية بنى عبس ، وقاهر الجبابرة من عرب وعجم . وجعلت تقص عليها من تاريخه ما أذهلها ، فقالت :

ولكن ما عليها من ثياب وعقود لا يكون إلا لدى الملوك والأكاسرة .

فقالت سمية :

أتى بها عنترة من ملوك العجم بسيفه ويده ، كما أتى لها بكثير من التحف النادرة ، وتاجاً ملكيًّا من كسرى أنوشروان .

ثم استأذنتها العجوز فى الانصراف ، وذهبت إلى معاوية بن النزال فقال لها :

لعلك عرفت أحوالهم ، وأنهم مقيمون أو مرتحلون ؟

فقالت :

دع عنك هذا الشأن ، فقد جئتك بما هو أعجب ، وجعلت تسرد على مسامعه ما تحلت به عبلة من جمال ، وما ازينت به من ثياب ولآلئ

حتى ملكت عليه قلبه ، ونسى كل شىء إلا أن يحظى بلقياها ؛ والتمتع بجمالها ، وإن بذل فى سبيل ذلك كل مرتخص وغال .

ثم قال لحليمة العجوز :

لقد أوقعتنى فى شرك الهوى الذى لن يغلبه أحد ، ولن أستطيع الآن صبراً على بعد عبلة .

فقالت حليمة :

لن تنفعك قوتك ، ولا كثرة جندك ، فقومها من الشجاعة والقوة بحيث لن ينال منهم أحد نيلا ، وحاميتهم عنترة يبيد بسيفه الجيوش الساحقة ، ولكنى سأحضرها بحيلتى ودهائى غداً بين يديك .

فبدت على وجهه مظاهر الاطمئنان وقال :

وماذا دبرت من دهائك ومكرك ؟

فقالت : تبعث معى عشرة من أشداء عبيدك ، واجعلهم يكمنون متفرقين قريباً من خيام بنى عبس ، ثم أدخل على سمية ، وبعد أن يستقر بنا المجلس ، أقول لها :

لقد بهرنى ما رأيت من فصاحة لسانك ، وسماحة خلقك ، وجميل لقائك ، وما شاهدت من جمال عبلة ، وما تحلت به من جواهر وحلل ، وقد تحدثت إلى بناتى الثلاث عنك وعنها ، فرغبن أن يحضرن إليكما ، ليرين وداعتكما ، ودماثة أخلاقكما ، وما أنتما عليه من ترف باذخ ، وعز

شامخ ، ولما وصلت بهن إلى الخيام حبستهن عن مصاحبتى هيبة البيوت ومن فيها من الفرسان ، وقعدن فى ظاهر المنازل من الحياء والهيبة ، وعولن على أن يسترحن ويرجعن ، دون أن يحظين برؤيتكما ، فذاب قلبى حسرة من أجلهن ، لأنهن يتيمات ، وقلت لهن :

انتظرن هنا حتى أعود إليكن ، فلو عطفت عليهن ، وخرجت أنت وعبلة معى إليهن ، كان لك عند الله أجر عظيم ! !

ثم قالت العجوز لمعاوية : فإذا ما خرجتا معى أشرت إلى العبيد أن يختطفوها ، ويفروا بها معى إليك ، فقال :

ذلك كيدعظيم ، ينيلنى ما أريد .

وكانت حليمة فى خيمة سمية ، وقصت عليها ما حاكته من مكيدة فخدعت بها سمية ، وقالت لعبلة — وكانت حاضرة :

ما رأيك فى العطف على هذه العجوز وبناتها ؟ وماذا علينا إن خرجنا ثم عدنا قبل المساء ؟

فقالت عبلة : لا أحتمل عتب عنترة إن بلغه ذلك .

فقالت : سأحتمل أنا عنك تبعته ، على أن تخفيه عن بنات عمك .

وما كادت عبلة تهم بالقيام حتى أقبل عنترة ، وهو يكاد يتميز من الغيظ ، فقالت سمية :

ما بك يا عنترة ؟ ! ! فقال عنترة :

بى كل هم وغيظ ، لقد ذهب قيس والربيع ببعض النوق والجمال إلى معاوية بن النزال هدية ، يشترون بها سكوته عنهم ، وقبولهم فى أرضه ، وتلك حال لا أطيقها ، وما كان لهم أن يقدموا عليها ، فلهم أن ينزلوا حيث يشاءون ، ويقيموا حيث ينزلون ، فلن يستطيع أحد أن يقف فى وجههم ما دمت فيهم .

ثم التفت فرأى حليمة العجوز ، فقال :

ومن تكون هذه المرأة العجوز؟

فقصت عليه أمرها ، وأنها كانت خارجة معها هى وعبلة إلى بناتها ، لولا قدومك الآن .

فنظر إلى العجوز نظرة تتقد غيظاً وغضباً ، وسل سيفه ، وضرب به حماراً وحشيًّا كان قد صاده ، فشقه بضربته نصفين ، ثم التفت إلى العجوز قائلا :

إما أن تصدقينى حديثك ، وإما فعلت بك ما فعلته بهذا الحمار ؛ ألست قابلة معاوية ومربيته ؟ ! ألم تنقلى إليه محاسن عبلة ؟ ! ألم يغرم بلقائها ؟ ألم تدبرى له أنت أمر هذا اللقاء ؟ ! ألم يبعث معك عشرة عبيد لأخذ عبلة إليه ؟ ! إن لم تصدقينى الخبر ألقيتك قطعاً للطير والوحش .

فذهلت العجوز ، إذ بانت مكيدتها ، وارتمت على قدميه ضارعة تستشفعه وقالت :

ومن أنا حتى أتصل بمعاوية ، أو أتحدث إليه ؟ ! أسألك بما جبلت عليه من حماية الضعيف أن ترحم ضعفى وشيخوختى .

فسكت عنها وسلمها إلى سمية ، وأمرها أن تحفظها عندها ، حتى يرجع إليها .

كان من بين عبيد معاوية عبد يحب جارية من جوارى بنى عبس ، فأخبر عنترة بما دبرت العجوز ، وبما جاء من أجله العبيد ، وأنهم كامنون فى مكان كذا وكذا من ظاهر خيام بنى عبس .

ولما سلم سمية العجوز خرج هو وأخوه شيبوب إلى حيث يكمن العبيد العشرة ، فقال لهم :

ما رأيكم ؟ إن العجوز التى جاءت بكم قد ذكرت ما جئتم من أجله وبما أنه عدوان علينا ، فلا جزاء لكم عندى إلا القتل العاجل .

فقالوا : لقد أطمعت العجوز معاوية فى عبلة ، وكفلت له إحضارها ، وجاءت بنا لتنفيذ محالها وكيدها ، مطيعين فى ذلك أمر معاوية .

فأجابهم عنترة بقطع رقابهم ، وكانوا تسعة ، أما العاشر فقد لاذ بالهرب قبل أن يأتيهم عنترة .

ولما رجع إلى سمية أخبرها بما فعل من قتل العبيد بعد أن أقروا أن هذه العجوز هى التى خدعت معاوية ، وجعلته يأمرهم بالسير معها لإحضار عبلة إليه ، فاغتاظت عبلة ، وخنقت العجوز ، أما العبد الذى

أخبره فإنه أعطاه الجارية التى يحبها ، وأمره أن يقيم معه .

وقال شيبوب لأخيه :

لقد هرب عبد من العبيد العشرة ، وأخشى أن يكون قد عرف ما فعلناه بالعجوز وعبيدها التسعة ، فيخبر معاوية ، وإذ ذاك يحبس قيساً والربيع اللذين ذهبا إليه بالهدايا ، وإذا زاد شغفه بعبلة ، أعماه عن سبل الرشاد ، فقتل قيسا والربيع ومن معهما ، وأرسل من يقاتلنا للحصول على عبلة .

فرجف قلب عنترة خوفاً على قيس ومن معه ، وخشى أن يصل معاوية نبأ فعلته بالعجوز وعبيده ، قبل أن يصل إليه قيس والربيع ابن زياد ومن فى صحبتهم ، فلا يبقى عليهم ، وأنفذ فى الحال أخاه جريراً وأمره أن يتنكر ، ويدرك قيساً والربيع ، ليعود بهما قبل أن يصلا إلى معاوية ، وإن لم يدركهما استمر فى سيره ، حتى يعرف مصيرهما ، وينقل إليه أخبار معاوية فيهم ، وفيما ينوى أن يفعله ببنى عبس .

وجاء جرير أخاه عنترة فقال :

إن الأمر جرى على نحو ما ظن شيبوب .

فقال عنترة : اقصص علينا ما رأيت .

فقال جرير : لما ذهب قيس والربيع ومن معهما إلى معاوية بما معهم من الأموال طمع فيهم ، فأمر بحبسهم ، بعد أن أوجعهم لوماً وتعنيفاً ، وكان

مما قاله لهم : عجباً لكم يا لئام العرب ، كيف تقتلون قابلتى وعبيدى ، وتطمعون أن أحميكم ؟ ! !

وقد عبأ جيوشه ، وعزم أن يبغتكم بها عند الصباح .

فقال عنترة : وماذا علينا لو دهمناهم قبل أن يتم جمعهم ، ويكمل أمرهم ؟

فقال الفارس الغسانى :

وتلك فرصة لنا ، تمكننا من التغلب عليهم ، فى أقرب وقت ، وبأيسر مجهود .

وقال جرير : إنهم خلق كثير ، ولن تظهروا على كثرتهم ، إذا غزوتموهم ليلا .

فقال عنترة : إن الليل خير لنا من النهار ، فهم مرتبكون ، ونحن لهم غالبون .

وقال شيبوب :

اسمعوا وعوا ، أولئك قوم لم يجربوا قتالكم ، فليس لكم هيبة فى قلوبهم ، وعددهم أكثر من عددكم ، والكثرة إن لم تغلب الشجاعة فإنها ترهقها وتتعبها ، والرأى عندى أن تتركوا فى منازلكم هذه كثيراً من أموالكم ، وترحلوا برجالكم ونسائكم إلى أرض غير تلك الأرض ، مخلفين فى منازلكم هذه بعض النوق والجمال والأموال ، حتى إذا جاءوها ولم يجدوكم ، ظنوا أنكم نجوتم بأنفسكم ، خوفاً منهم ، وحينئذ يشغل الجند بنهب

الأموال ، وينصرفون عن القتال ، وقد يقتفى آثاركم فئة قليلة من فرسانهم طمعاً فيكم ، فإذا ما أدركوكم فأبيدوهم ، وكلما جاءتكم فئة منهم مزقوها ، ولا تَهِنوا فى ابتغائها ، حتى تدور عليهم الدائرة ، ثم نرجع فنخلص قيساً ومن معه ونسترد أموالنا ، وأمامنا مكان يسمى عقبة الفروق ، ذو شعاب ومضايق ، فلنعتصم به ، ونلتقىَ بالأعداء عنده ؛ فاطمأن جميعهم إلى رأى شيبوب .

وقال عنترة :

لا رأى من غير عمل ، فعجلوا بالرحيل حتى يتبعنا المغيرون إذا لم يجدوا منا أحداً .

١٦

ذاع بين بنى سعد نبأ حبس قيس ، وأن قومه نازلون بأرضهم ، ومعهم من الأموال ما يطمع فيها المقل والمكثر ، فنفروا من كل حى زرافات ووحدانا ، وتسابقوا إلى أموال بنى عبس ليأخذوها ، وكان معاوية قد أراد أن يخرج بهم كتلة واحدة فلم يستمعوا له ، لأن كلاًّ حريص على أن يسبق غيره ، ليكون حظه من الأموال أكثر من سواه .

وأدركهم معاوية فى ثلة قليلة ، فلم يجد فى منازل بنى عبس إلا

أموالا تنهب ، ووجد قومه وفرسانه منهمكين فى أخذها ، والحصول عليها ، فنادى فيهم :

يا بنى سعد ، لا تشغلكم أموال بنى عبس عن اقتفاء آثارهم ، والضرب على أيديهم ، فلديهم نساء وجوار كأنهن اللؤلؤ المكنون .

وما زال يروضهم على السير معه ، حتى أدركوا بنى عبس فى أرض النقاء ، قبل أن يصلوا عقبة الفروق ، وكان بنو عبس قد جعلوا أموالهم ونساءهم وجواريهم من أمامهم ، فلما أطل بنو سعد عليهم ، انقلب العبسيون إليهم ، وجالوا فيهم ، فهزموهم شر هزيمة ، وفر معاوية ورجاله ، فأمر عنترة عروة بن الورد أن يسير فى ألف فارس بالأموال والنساء إلى عقبة الفروق ، حتى يلحق هو بالأعداء الفارين ، ويقضى عليهم القضاء الأخير ، ويخلص قيساً ومن معه من الأسر والاعتقال ، ويسترد مالهم عند الأعداء من الأموال .

وصل معاوية ومن معه من الفرسان الهاربين إلى منازل بنى عبس فى أرضهم ، فوجد قومه مشغولين بأموالهم التى تركوها من خلفهم ، فنادى فيهم :

لاتشغلكم تلك الأموال عن النجاة بأنفسكم إلى الديار ، فمن خلفنا شيطان مريد ، فى ثلة من الجن ، وإن أدركونا فقد أدركنا الفناء ، فهيا بنا نعتصم بديارنا ، حتى نسترد قوتنا ، ونجمع جموعنا ، ويأتينا من

المدد من حلفائنا وأصدقائنا ، ثم نبغتهم فى عقبة الفروق النازلين فيها ، ولدى الآن من المكيدة ما يمكننا منهم ، ويظهرنا عليهم .

فقالوا : على أية مكيدة عولت ؟

فقال : أن أعرض على قيس فك رقبته ، على أن يذهب إلى قومه ، فيفك رقاب أسرانا ، ويعيد إلينا أموالنا ؛ وفى تلك الفترة نكون قد جمعنا جموعنا ، ثم نهجم عليهم فى عقبة الفروق ، فلا نذر منهم أحداً ، وليس لى فى هذه المعركة ، إلا الحصول على عبلة ، ولكم أنتم بعد ذلك جميع ما تغنمون من الأموال والجوارى ، فعملوا برأيه ، وأسرعوا جميعاً إلى ديارهم .

وكان عنترة قد قال لصحبه :

يبدو لى أن معاوية سيذهب إلى قيس ويخلى سبيله ، بعد أن يأخذ عليه ميثاقه أن يصالحه ، ويفك أسراه ويرد أمواله .

وبينما هم سائرون إذ لقيهم قيس والربيع ومن معهما ، فاستبشر قيس بلقاء عنترة ، وشكر له شجاعته التى كانت سبباً فى خلاصه ، وقال :

خلى معاوية سبيلنا ، بعد أن أعطيته عهداً بمصالحته ، وإطلاق الأسرى من رجاله ، ورد أمواله ؛ فلم ير عنترة بداً من النزول على ما أبرم قيس ، ورجعوا جميعهم إلى عقبة الفروق .

* * *

كان عروة قد ذهب فى ألف فارس ، بنساء بنى عبس وعبيدهم وجواريهم إلى عقبة الفروق ، فألفاها جرداء لا تصلح للمقام فيها ، فلاذ بقومه إلى جبالها ، حتى يعود إليهم عنترة .

وبينما هم نازلون إذ رأى عروة غباراً ثائراً ، فركب فى فرسانه إليه ليتبين أمره ، فوجده لجابر التميمى ، كان قد خرج للصيد فى ألف فارس ، وما زال يطارد الوحوش حتى كان عند بنى عبس فى عقبة الفروق ، فلقيه عروة وسأله : من أنتم ؟ وإلى أين تذهبون ؟

فقال جابر : نحن من بنى تميم ، وهذه أرضنا ، خرجنا للصيد ، وما زلنا نطارد الوحوش ، حتى التقينا بكم ؛ فمن تكونون ؟

فقال عروة : نحن من بنى عبس .

فقال جابر :

إنى أعرف أنكم نازلون على معاوية بن النزال ، فكيف تركتموه ؟

فقال عروة :

أصابنا بغدره ، ففررنا بأموالنا ونسائنا من وجهه ، ونزلنا بأرضكم هذه ، ننتظر بقية رجالنا ؛ حتى نختار منزلا نتخذه مقاماً ، ثم حدثهم بما كان بينهم وبين بنى سعد من القتال فى عقبة الفروق .

وكان من بنى تميم فارس يدعى داثراً ، وكان داثر أخاً لجابر التميمى فالتفت إلى قومه وقال :

هؤلاء بنو عبس ، فعلوا بجيرانكم ما فعلوا ، ثم أووا إلى أرضكم ، فخذوهم بسيوفكم ، ثأراً لجيراننا وتأديباً لأمثالهم .

فلم يسع عروة إلا أن شق صدره برمحه ، فوقع على الأرض لا حراك به ، فثارت ثائرة بنى تميم ، واحتدم القتال بين الفريقين ، وكانت دائرته على بنى تميم ، فولوا الأدبار مهزومين ، ورجع عروة ورجاله فرحين ، ولكنهم تواصوا أن يأخذوا حذرهم ، حتى لا تبغتهم جموع بنى تميم ، فيقتصوا منهم .

ولما أصبح بنو عبس وجدوا معاوية بن النزال قادماً إليهم بخيله ، ورجال جابر التميمى الذى استعان به على غزوهم ، لأنهم احتلوا ديارهم ولأنهم قتلوا أخاه داثراً ، على ألا يكون لمعاوية من غنائم الغزو إلا عبلة زوج عنترة ، أما ما يغنمون من مال ونعم ، فهو لجابر لقاء معونته .

ودارت الحرب بين الفريقين ثلاثة أيام تباعاً أظهر بنو عبس فيها من الصبر والجلد ، والثبات والكد ، ما كان موضع فخرهم ، وإن كانوا قد أشرفوا على الاستسلام ؛ وفى الليلة الرابعة ، أشار رجال بنى عبس على عروة ، أن ينفذ جريراً أخا عنترة ، ليستحث قومهم على المسير ، حتى ينقذوهم من هذا المصير القاضى عليهم بإلقاء أسلحتهم ، والاستسلام لأعدائهم .

وجاء النهار وجرير يطير فى الصحراء ، حاملا رسالة عروة إلى عنترة

فى الوقت الذى كان فيه معاوية بن النزال وجابر التميمى وجنودهما يقاتلون العبسيين فى سبيل النصر كأنهم بنيان مرصوص ، وثبت بنو عبس وصبروا ، على ما أصابهم فى هذا اليوم من بلاء ومحنة ، وكادت دائرة القتال تدور عليهم لولا قدوم عنترة .

ففى وقت الأصيل جاءهم عنترة فألفى قومه قد خارت قواهم ، وغاب فى النصر أملهم ، وأحاط بهم الأعداء فى المضايق والشعاب راجلين ، وهم من أمامهم يدافعون عن أنفسهم الموت فى صبر وثبات عظيمين ، فنزل عنترة عن جواده ، ونزل رجاله عن خيلهم ، واندسوا بين الأعداء يأكلونهم بسيوفهم أكلا ؛ وما هى إلا ساعة عابسة انتهت بأن تجرع فيها الأعداء كئوس الهزيمة مترعة ، وقتل معاوية بن النزال سيد بنى سعد ، وجابر بن نجد سيد بنى تميم ، فارتد قومهما على أعقابهم خاسئين ، وفروا إلى أوطانهم من وجه عنترة ورجاله فزعين .

أما بنو عبس فقد جمعوا الغنائم والأسلاب ، وأصروا على الرحيل من هذه البقعة إذا ما بدا وجه النهار ، وفى أثناء مسيرهم جعلوا يتذاكرون أمر معاوية بن النزال ، وكيف أهلكه غدره ، وكيف كان لعنترة الفضل الأكبر فى هذا النصر العظيم ؟ ! ! !

١٧

سار بنو عبس حتى كانوا فى وادى ماء النعام الفسيح الجنبات ، وهو على مقربة من أرض لبنى فهد ، وملكهم يدعى الجون بن روضة الفهدى ، فأقاموا بهذا الوادى نزولا على رغبة قيس بن زهير ، وأحب عنترة أن يكون على علم بالأرض التى يقيم بها وما يجاورها ، ومن يقطنون فيها ، وما وجهتهم فى العلاقة بينه وبينهم ؟ فأرسل أخاه شيبوبا فى ذلك ، على أن يتنكر ، ولا يظهر على سره أحداً .

رجع شيبوب إلى أخيه عنترة وأخبره أن هذه الأرض التى تبعد عنهم أربعة فراسخ لبنى فهد ، ولهم ملك يدعى الجون بن روضة الفهدى وهو يعرف بالمروءة والنخوة وكثرة الأعوان وعظيم القوة ، ولكن آفته عمرو بن ضمرة الذى لا ينفك يخرجه عن طبعه ، ويحرضه على الغزو والعدوان على الأبرياء ، ولا إخاله إلا موغراً صدره علينا ، ومغريه بقتالنا ، وإزعاج أمننا ، لأنه مغتر بقوته ومهارته فى القتال .

فقال عنترة : لقد ساقنا القدر إلى هذه الأرض ، لنقضى على هذا الفارس ، ومن الحيطة أن نبث حوله العيون لنكون على علم بما يدبره لنا .

فقال شيبوب : ولا ينبغى أن يوكل هذا الأمر إلى أحد غيرى ،

وسآتيك من أخباره بما تحب أن تعرفه وتقف عليه .

وذات يوم جمع عمرو رجاله وهم أن يسير بهم إلى بنى عبس لضربهم ، والتنكيل بهم ، لحاجة فى نفسه لم يبدها لرجاله ، فأشاروا عليه أن يخبر الملك الفهدى بما عزم عليه مخافة أن يكون قد منحهم أمانه ؛ فنزل عمرو على رأيهم ، وساروا إلى جون بن روضة الفهدى ، فسأله هذا قائلا :

لأمر ما أتيت برجالك الآن يا عمرو ؟

فقال عمرو : سمعت أن بنى عبس نزلوا بأرضنا دون استئذاننا ، وفى ذلك مساس بكرامتنا ، فأحببت أن أذهب إليهم برجالى لأنزل بهم من النكال ما يجعلهم يهابوننا ، ولا يطمعون فينا ، وآثرت أن أعلمك بما عزمت عليه قبل تنفيذه حتى لا أكون موضعاً لعتبك ، فماذا أنت قاض ؟

فقال الملك : لقد جئتنى يا عمرو وأنا فى حيرة من أمر هؤلاء القوم ، فقد بلغنى أنهم اجتازوا أرض المصانع ، وقتلوا معاوية وجابراً وأخاه داثرا وصبوا وبالهم على بنى تميم ، وقوم هذا شأنهم ، وتلك قوتهم ، لا ينبغى أن يؤمن كيدهم ، ويغفل أمرهم .

فقال عمرو :

ولكنى سررت بنزولهم أرضنا .

فقال الملك :

ولم ذلك ؟ أبينك وبينهم دم ؟

فقال عمرو :

لا ، ولكنى خطبت لنفسى زهرة ابنة عمى ، وقد شرط علىّ أبوها ألا يزفها إلا وفى حاشيتها خدم من عرب الحجاز ، وقد كنت عولت على المسير إليهم ، ولكن القدر ساقهم إلى أرضنا ، فأصبح أمرى يسرا ، وما داموا قد قتلوا معاوية وجابرا وأخاه داثرا فقد أصبح بيننا وبينهم دم ، ولا بد أن نثأر لأنفسنا منهم .

فقال سادات بنى فهد :

ذلك رأى صائب ، وعليك يا عمرو أن تجرد لهم أعظم قوة ، وتغير عليهم بها ، ليتحقق لك منهم ما تريد ، وسنكون لك أعظم ناصرا ، وأكثر نفيرا ، حتى لا يطمع هؤلاء المردة فينا كما طمعوا فى غيرنا .

فقال عمرو : وسأعف عن جميع ما نغنم منهم إلا ثلاثاً من نسائهم : عبلة بنت مالك زوج عنترة ، والجمانة بنت قيس بن زهير ملكهم ، وبنت عياض بن ناشب ، ليكون هؤلاء النسوة خدماً لزهرة بنت عمى .

فقال الملك : يكفيك منهن واحدة ، ودع لى الاثنتين الأخريين ، على أن أجعل لك عوضاً عنهما ما تريد من المغانم .

فقال عمرو : ولتكن الواحدة التى أختارها عبلة ، لتكون لزوجى خادمة ، ففيها لى كل الغناء .

فقال الملك : ذلك لك .

وكان شيبوب متنكراً بينهم ، يستمع لهذا الحديث كله ، فطفق مسرعاً إلى أخيه ، وألقى فى صدره ما سمعه ، فقال عنترة :

لقد حان حَيْنُ عمرو ، وجاء قومه وقوم بنى فهد أجلهم .

فقال شيبوب : وقد دبرت لك الأمر ، وهيأت لك السبيل إلى قهرهم .

فقال عنترة : وكيف كان ذلك ؟ ! !

فقال شيبوب : أن تجعل على بنى عبس من يخلفك لحمايتهم والدفاع عنهم ، وتخرج أنت فى مائة فارس ، على أن أكمن بك وبهم فى مكان أعرفه ، حتى إذا مر بنا عمرو وجماعته ، وأنصاره من بنى فهد ، دهمناهم على غرة ، فقتلنا رجالهم ، ونهبنا أموالهم وأسرنا حريمهم ، وربما تمكنت أنت من عمرو فقتلته ، ثم نعود إلى قومنا فندفع عنهم ما عسى أن يكون قد أحاط بهم من شدة ، أو غارة من عدو .

وكان الملك قيس قد علم ما هم قادمون عليه من قتال ، فضاق صدره وقال :

ليتنا ما قدمنا إلى هذه الأرض الخبيثة !

فقال عنترة : لا يكن فى صدرك حرج مما سمعت ، فيدك فوق أيدى من فى الحجاز واليمن ، ما دامت الحياة يجرى دمها فى هذا البدن — وأشار إلى نفسه — وقد ساقنى القدر إلى أهل تلك البقعة ليكونوا طوع يمينك ، وأموالهم وجمالهم فى قبضتك ، فضع عنك همك ، واشرح للأيام صدرك ،

فقال قيس : دمت لقومك وأهلك حامياً ونصيراً .

ووصى عنترة مقرى الوحوش بقومه، وخرج هو فى مائة فارس شِداد، وجعل شيبوب يسعى بين أيديهم ، وهم له تابعون ، حتى كمن بهم على مقربة من ديار عمرو بن ضمرة ؛ ثم تنكر فأسرع إلى ديار عمرو ، فعلم أنه خرج فى رجاله وعبيده إلى قتال بنى عبس ، ففر إلى أخيه عنترة وأفضى إليه بما علم ، فنهض عنترة من فوره برجاله ، وأغار على ديار عمرو فى غيبته، فأزعج أهله وقومه ، وأسر أخت عمر وزهرة خطيبته، وكثيراً من النساء والجوارى؛ ثم أعرض عنترة عن سوق النساء والجوارى إلى قومه ، فأمر عروة بن الورد — وكان معه — أن يطلق سراحهن، ثم عاد هو ورجاله إلى قومه ، ليلتقى بعمرو ويبارزه ، وحملوا معهم زهرة خطيبته، وهناك وجد الحرب قائمة ، وأطماع عمرو والملك الجون فى بنى عبس حامية ، فخب فيها ووضع ، وسقى الأعداء كأس الخوف والجزع ، وشق عمرو بن ضمر بسيفه نصفين، ورأى الملك الجون ذلك رأى العين، فأمر على الفور رجاله أن يكفوا عن القتال ، وأرسل إلى قيس رسوله ، ينشد سلمه وصلحه ، فقال الرسول :

أيها الملك ، لقد أرسلنى المليك وهو يعلم أنكم قوم ذوو نفوس أبية ، ونخوة ورجولة، وفضل ومروءة، وأن العفو أحب إليكم إذا كان عند المقدرة، وقد كان ملكنا يحمل لكم فى نفسه كل ولاء ومحبة ، وإكرام وتجلة، وما حفزه إلى قتالكم إلا عمرو بن ضمرة ، الذى لقى الآن حتفه ، وكان

علة ما بينكم وبين مليكنا من حرب وفتنة ، ونحن نعرض عليكم سلماً دائماً ونطلب منكم عفواً شاملا ، وأن تعجلوا برحيلكم من الديار ، مخافة أن يفسد بيننا وبينكم أحد الجهال ، ولولا تلك المخافة لحرصنا على جواركم ، ودوام سرورنا بمقامكم .

فقال الملك قيس : بلغ صاحبكم أننا عفونا عنكم ، وأننا فى دياركم غير مقيمين .

بلغ الرسول ملكه الجون ما سمع ، ففرح لذلك ، وسرح رجاله ، وأمرهم أن يرجعوا إلى ديارهم، ويغمدوا سيوفهم ، ويفيئوا إلى الأمن والسلام .

ولم يكن عنترة راضياً لوقف القتال ، ولكن قيساً هدأ ثورته وقال :

إنى ما أجبت إلى الصلح إلا لندرأ عن أنفسنا شراً يطول أجله ويعم ضرره، فإن بلاد اليمن واسعة ورجالها كثيرون، ونخشى إن لم نسالمهم أن يجمعوا جموعهم ، ويأتونا فى مكاننا هذا بحرب ضات أجلها ، فنبقى إلى الأبد فى شقاء أليم ، فرأيت أن أوافقهم على طلبهم الصلح لنستريح هنا أياماً، ثم نرحل باحثين عن مكان منقطع عن الناس، تطيب لنا الحياة فيه بما نجد من ماء ومرعى وغيرهما ، فنتخذه لنا دار مقامة لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب .

وبينما هم فى أيام الراحة إذ جاءهم أن بنى سعد وبنى تميم قد جمعوا

جموعهم وعولوا على المسير إليهم ليثأروا لملوكهم ورجالهم ، فقال قيس لقومه :

أرى أن نعجل بالرحيل من هذه الديار قبل أن يصل الخبر إلى بنى القين وبنى فهد فيعوقوا بالقتال مسيرنا ، وإذ ذاك يلحق بنا أعداؤنا من بنى تميم وسعد ، وينضمون إلى الأعداء فى هذه البلاد ، فنتعرض لشر قد لا ننجو منه .